محمد مستجاب

ديروط الشريف
و
ن[illegible] عبد الحافظ

قصص قصيرة

مكتبة مدبولى
القاهرة

ديروط الشريف

و

نعمان عبد الحافظ

الطبعة الثانية

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

محمد مستجاب

ديروط الشريف و نعمان عبد الحافظ

قصص قصيرة

مكتبة مدبولى
٦ - ميدان طلعت حرب - القاهرة

دروب الشريف

قصص قصيرة

هولاكو

في سنة كذا وعشرين كان جدي قد ترك مدينة قوص خلفه وتوغل مع رفاق رحلته في بطن جبال الصحراء الشرقية ، وعندما ترنحت شمس اليوم الخامس تبغى الغروب . كان الممر الوحيد الذي يسيرون فيه قد أصبح عشرة ممرات ، وتاهت العيون وثاغت الابل وتهدجت الأنفاس حينما همس جدي لأقرب رفيق (لقد تهنا) . فلم يتمالك الرفيق نفسه فبكى بطريقة محرجة ، وتسلل بكاؤه إلى الآخرين فضربوا كفاً بكف ومكثوا عدة ساعات يطلبون من الله العلي أن يهديهم سواء الطريق ولا سيما أنهم كانوا في طريقهم لزيارة بيت الله المحرم وقبر نبيه الكريم .

وخلال خمسة أيام رهيبة أخرى أرهق الرجال وَوَهنت الإبل ، وضعفت النفوس . وتهتك أمل الحج ولم يبق داخل القلوب سوى أمل واحد : أن يجدوا أي طريق يصل بهم إلى أي مكان . ولكن جدي كان قوياً فنذر ـ وقال سراً ـ بأنه في حالة إنقاذه مما هو فيه فسوف يبني لله مسجداً لا يوجد مثله في قريته وإذ به بعد ساعات ـ مع رفاقه ـ على حدود مدينة قوص نفسها .

يقول الأوغاد ، والذين لا يحبون الخير لعائلتنا أن جدي كان السبب

فيما حدث ، وأن محاولته للحج لم تكن خالصة لوجه الله تعالى وأنه كان ـ بجوار الحجر الأسود ـ سوف تسنح له الفرصة الكاملة والفريدة ليستعدي الله على الخصوم وأنه ـ ونتيجة لذلك فإن الله قد تعاطف مع الخصوم حتى أن أحدهم ذبح عجلاً يوم عودة جدي من الحج بلا حج .

ولكن الشيء المؤكد أن جدي صبيحة وصوله قد تحرك بمفرده ، ولف طويلاً حول القرية ، ثم توقف على رأس المثلث الطيني الذي صنعته الترعة مع مدخل القرية وجلس القرفصاء ثم وازن المسألة جيداً وخطط خطوطاً لوغاريتمية ثم وقف وألقى الحرام الصوف على كتفه وقرأ الفاتحة إيذاناً ببدء تنفيذ قراره والخاص ببناء مسجد لم تر القرية له مثيلاً من قبل .

وفي جلسة مليئة بالتهدج الديني جلس حول جدي أبناؤه ، وبعض المناصرين له ، وبؤونة على الأبواب ، والقمح في الصوامع والقصب في الفابريقة ، والأغنام في الحقول والرجال في الدميرة ، و. . . . . هل هناك اعتراض على شيء محدد ، ولم ينبس أحد من الرجال وتفرقوا وهم يشعرون بأنهم أقرب إلى الله أكثر من أي وقت مضى .

وفي خلال شهر واحد كانت البقعة الموحلة قد ردمت . وارتفع البناء إلى ما يساوي المتر . ثم توقف البناء بسبب حادث عادي . فقد ذهبت عمتي لتوقظ جدي فوجدته قد أسلم الروح .

أحياناً ـ في مسألة كهذه ـ يخلق الله رجلاً قوي الشخصية يجمع

الآخرين حوله وينهي ما بدأه الرجل العظيم الذي لم تتوفر له فرصة إثبات خالص نواياه . ولم يستطع أن يكيد للخصوم والأعداء .

ونظراً لأن هذا الطراز من الرجال لم يتوفر في عائلتي فقد ترك البناء المتري واقفاً في مثلثه الضيق حزيناً تنشع تحته المياه .

ولما كان الوازع الديني لدى الكلاب غير واضح ، فقد دأب بعضها خلال الشتاء الذي تلا توقف البناء على المرور على الحوائط ورفع الأرجل الخلفية وإرواء بعض النباتات النجيلية التي تسربت من بين فواصل المداميك .

ثم لم تلبث السحالي والمياه الصفراء وأعشاش الزنابير أن تكتلت وصنعت للمبنى صوتاً موشوشاً خافتاً يثير الخوف في بعض ضعاف النفوس .

لي عم واجه بعض المتاعب ، إذ أن ساقه اليمنى كسرت أثناء تسلقه لحائط أرملة واضحة الجمال في مهمة لا أدري تفصيلاتها ، وقد ظل الرجل بعض الوقت عالة على أخوته . وعندما شعر بأنهم بدأوا يضيقون به ، اقترض قرشين ـ ربما من نفس الأرملة ـ واشترى مجموعة من الأقفاص رتبها وبداخلها كميات طماطم وخيار وفاصوليا وسقط اليوسفي . وبدأ ـ في الصباح المبكر يستقبل عملاءه في يقظة ونشاط . ولم يكد مشروعه التجاري الاستهلاكي الهام يصل إلى مسامع أطراف البلدة حتى هب إخوته وباقي العائلة يحافظون على الشرف الموشك على أن يلطخ داخل بناء المسجد الذي لم يكتمل والذي خرجت الفتاوى

المستعجلة من داخل أوكار العائلات الأخرى المناصرة لنا والتي أثبتت ـ بما لا يدع مجالاً للشك أن استخدام المسجد ـ مهما كان بناؤه غير مكتمل ، ومهما قام أي فرد بتنظيفه ـ في عمليات البيع والشراء هو عين الكفر ، وأنه يستحسن أن يزال المسجد من أساسه بدلاً من تركه لواحد فلاتي يمارس فيه هذا العمل المشين نهاراً (وبالطبع لم تأت سيرة ما يمكن عمله في نفس المكان ليلاً) .

وكانت النتيجة المنطقية أنه لا بد من إتمام المسجد . وزحفت عائلات أخرى لتشاركنا في الموقف . ولكن أحد أفذاذ العائلة أشار بكفه إلى أعلى معلناً الرفض ، فإن المسألة تخصنا أولاً وأخيراً .

وباعت العائلة جزءاً من أرض بعيدة لا تؤتي ريعاً مربحاً (وبالمناسبة كان البعض يستفسر عن السبب الذي كان الله يبارك فيه لجدي في ماله ولم تتسرب هذه البركة لباقي العائلة) وبدءوا يكملون البناء .

وارتفع البناء عدة أمتار وظهرت ملامح المسجد واضحة تكاد تصل إلى العنق حينما داهم القرية بعض مفتشي المباني .

من المسئول عن المبنى ؟ وتقدم عمي الأوسط القوي الغير مصاب بعرج وقال وكأنه سيقبض مكافأة إنجاز .

ـ أنا المسئول عنه .

واصطحبت الحكومة العم العظيم معها في بداية عام ١٩٣٧ وتركوه ليقضي شهرين سجناً مع الشغل لإقامته مباني لأغراض عامة دون الرجوع إلى السلطات والحصول على التصريح الخاص بها ، ووضعت

القرية يدها على فمها استغراباً أو ذهولاً أو انزعاجاً أو سخرية أو حياء ، ولكن الشيء المؤكد أن البناء توقف وأن الكلاب والزنابير والمياه الآسنة بدأت تعيد تكتلها وأن الخفافيش قد وصلت في نشاطاتها إلى الحد الذي لم تتوفر للعناصر السابقة أن تصل إليه .

أخي الأكبر رجل . المعنى الكامل للرجولة ، فهو ليس من طراز جدي أو أي عم من أعمامي . فقد حصل على شهادة التعليم الأولى ، ثم استطاع أخواله (وهم غير أخوالي) أن يلحقوه بعمل في مجلس المديرية في أسيوط . وأقام بعيداً عنا حيث أصبح الملاذ لمعظم أهالي البلد ؛ الذي لديه قضية في أسيوط أو المطلوب في الجهادية أو الذي يود أن يرشو مفتش الري أو الذي يرغب في أن يضيع له قرشين من فلوس القطن يمر على أخي حيث يقيم طرفه حتى تنتهي مأموريته .

واشتهر أخي وأصبح أكثر شهرة من عبد العليم العمدة وأحمد خميس الشاعر .

ولم تكن أخبار المبنى بعيدة عن أخي بالإضافة إلى أنه اشتم رائحة مناقشات تدور في مجلس المديرية عن ضرورة إقامة مدارس في القرى لتعليم ـ طبعاً ـ الشعب .

ولم يكن أخي غبياً ، جاء إلى القرية ودرس الأمر مع إخوته وأكد لهم أن القرية ليست في حاجة إلى مسجد قدر حاجتها إلى مدرسة ، إن القرية تحوي ثلاثة عشر مسجداً وعدة زوايا أخرى . في حين أن مدرستها الوحيدة هي جزء من مسجد قديم يديرها بالغلال والبتاو

والعيش المصري ـ الشيخ عبد الودود الذي للأسف كان من عائلة من عائلات الأعداء . بالإضـافة إلى أن التعليم يـلي العبادة عنـد الله ، ويكسبون من وراء ذلك مكاسب كثيرة ، المدرسة عندهم وسيكون بها مدرسون ونـظار ومفتشون ثم إيجـار شهري محتـرم وأعطوني تـوكيلاً للتصرف .

وحصل أخي على التوكيل . وباع أرضاً وحصل على ترخيص إقامة مباني وقام بتسقيف المدرسة وتوسيع يسارها بشراء قطعة أرض أضافها إليها . . . ثم قسمها إلى دورين والدورين إلى حجرات . . . وفرك يديه ارتياحاً وخرج يلقي النظرة الثانية على المبنى وسار إلى محطة القطار في طريقه لينهي المسألة في أسيوط فإذا به وعلى النـاحية الأخـرى من الـطريق يجـد بعض الأعـراب المقيمـين في الخيــام يـدقــون بعض الأوتاد . . .

ـ خير يا أولاد ؟؟

ـ إحنا عمال المساحة بنحدد مكان المدرسة الجديدة . ثم خرج إليه أحد الذين يرتدون القبعات الغليظة . وقال وهو يحييه :

ـ أصل مستعجلين . . . لازم نسلمها للمقاول بعد بكرة علشان يبنيها قبل الشتاء الجاي . . . وسقط أخي حيث مات ودفن في أبريل عام ١٩٥٠ .

أنا فلان الفلاني . . .

تخرجت منذ عـامين من كليـة الآداب ، أمارس بعض الأعمـال

الخفيفة ـ كإعطاء الدروس الخصوصية ـ لحين تعييني .

تعرفت ـ أثناء جولة بالأوتوستوب في أوروبا ـ ببعض الفرنسيين ، دعوتهم لزيارة بلدنا وها قد لبوا الزيارة . . .

من المجموعة واحدة اسمها ماريانا ، جميلة وثرثارة وتتمتع ببعض الامتيازات الفردية كالقدرة على الالتهاب أينما وكيفما تكون .

ماريانا نظرت إلى المبنى ، شملته بعينيها الخضراوين ، ثم صاحت بما يعني أنه رائع . . . إنها مستعدة لتساهم بما تملك لإقامة استراحة للسياح القادمين أو الذاهبين على طـريق الصعيد من وإلى الأقصر . وأسوان .

كانت أفكارها عصرية وواضحة ، كان المبنى رائعاً ، وكان الطريق الذي يخترق الصعيد بطوله لا يبعد عن مكاننا أكثر من رمية حجر ، وكانت لمريانا رغبة في أن تحضر أختها التي ترقص في الملاهي الرخيصة لتشيع الدفء في المكان وكان الكلام منطقياً ومريحاً .

* * *

موقعة الجمل

القيالة سحبت الناس والبهائم من الشوارع والجسور ، ألقت بهم على المصاطب وداخل الزرائب والبيوت . وصف الشيخ عبد العزيز خليل (٩٢ عاماً) طقس ذلك اليوم بأنه جهنم ، وقالت زوجه الوحيدة الباقية على قيد الحياة (وهي مقعدة) : اللطيف هو الله .

وأغلق الحاج نادر الدكان وهرع إلى باحة المسجد ، حيث استرخى - أقصد استلقى - وهو يلهث دون أن يلقي السلام على جثث محمد عبد المجيد وعبد النظير إبراهيم ، وأبي زيد ، وقاعود ، حتى الذباب والكلاب والغجر همدوا وكمنوا .

القرية كلها - هجعت دون نوم تحت الحوائط وبجوار الأزيار وفي الظلال ، ولم يكن في الجو نسمة واحدة يمكنها أن تزيح الجبل من فوق الصدر .

ثم مرق في مسالك القرية أحد الرجال واندفع إلى الأبواب يدقها بعنف صارخاً : صاحبكم وصل فانفتحت الأبواب والطاقات .

الذين كانوا في الباحات المفتوحة : باحة الجامع والسويقة تحركوا أولاً : رغم أنهم لم يكونوا أول من سمع النبأ ، أخذتهم الرجفة في

أول الأمر ، لكنهم تداركوا شتاتهم واهتزت أبدانهم ، ثم انفلتوا إلى الطرق ، يتبعهم بقية الخلق ، فصاحبهم وصل .

كان مقصدهم : منزلاً قصيراً في أعلاه نافذة حديدية ، وبابه مرقع بكمر حديد (من الكمر الذي استولت عليه القرية عندما اشتركت في تحطيم مركز شرطة البندر أيام ثورة ١٩١٩ ونهبت ما فيه) .

وفي ثـوان معدودة تحلق الخلق حـول المنزل ؛ لم يبق كـائن وراء الجدران ، الكل هنا ، تجمعوا في هذا المنخفض الرطب ، ووجوههم تلف المنزل ، وأصواتهم تعربد في الجو ، والحرارة تشوي الجلود ـ افتح الباب يا جمل ، لكن « الجمل » لم يفتح الباب أو النافذة ، فتحركت تموجات القوم في كل اتجاه . . .

ـ أخرج يا جمل . .

لكن « جمل » لم يخرج ، فدق الأقويـاء الباب بـانضغاط عنيف ، والباب كتلة فولاذ .

إفتح يا جمل !

وإنهال الطوب على الباب والنافذة وصكت النساء المسامع بصراخ منفر خشن ، وظل الباب مغلقاً والنافذة مغلقة .

ـ نهد البيت فوق دماغه .

واندفعت الحجارة الضخمة من الجبانة وبطن المنخفض تهز الجدران والباب ، وتحولت البقعة إلى سحابة غليظة من الغبار ، واكتشف بعض رجال الميمنة جذع نخلة مقطوعة فرفعوه في عنف ودون إعياء ، وبدأوا

يـدقون البـاب ، وبين كـل دقة وأخـرى ينهمر التـراب من الحوائط وأصداغ الباب . . .

وبدأ الباب يتلخلخ .

ثم انفتحت النافذة ، فتحها الجمل بنفسه ، وظهر وجهه الأبيض المرتعب من بين القضبان ، وحينما انهمرت عليه الحجارة والطوب أغلق النافذة .

ـ اخرج يا جمل . .

وفتح الجمل النافذة مرة أخرى ، وامتدت يده بقماشة بيضاء ، فإذا بالعيون تتسمر على النافذة ، امتصت الراية البيضاء الزعيق والصراخ والحركة . . . وصرخ صوت الجمل متوسلاً :ـ

ـ أنا خارج ، على شرط . . .

واستمر الصمت فأكمل الجمل :

ـ ما فيش حد يقرب من الأولاد . . .

المعاوضة والحدايدة والفيران على اليمـين ، الشناويـة والعمايشـة وأولاد الجربان على الشمال ، في القلب وأسفل جدران البيت مباشرة باقي الناس . . .

تراجع الجميع إلى الخلف وصنعوا ربع دائرة أمام الباب .

انفتح الباب .

خرج طفل صغير يلبس قميصاً زاهياً مشجراً وبنطلوناً أبيض ، كان

وجهه مذعواً ، ولم يكن يدري بعد خروجه بسنتيمترات إلى أين يتجه .

تبعته طفلة نحيلة تكبره بعام أو عامين ، ترتدي فستاناً ذا خطوط عـريضة خضـراء ، وكفها الصغيـرة تلف في الهواء محـاولـة التشبث بأخيها . . .

آخر أصوات القوم تلاشت ، وغمر الصمت الجميع :

بعد ثوان خرجت الأم صفراء . . . كالرهقان .

ـ اخرج يا جمل .

وماجت أصوات مفزعة ، وكاد الطفلان يعودان رعباً إلى الداخل ، حينئذٍ تحركت بلطة سوداء ، تحركت بلطة سوداء صدئة ومارت في الجو واندفعت في سرعة إلى رأس الطفل ، ثم بلطة أخرى شرسة ، وانشرخ رأس الطفل ، انشرخ رأس الطفل ، وسقطت قراعتها ، وبلطة ثالثة تلمع ، لتتمزق رقبة الطفلة ، وارتمت ـ الرقبة ـ إلى الخلف ، بلطة إلى أعلى وبها قماشة الفستان .

امتدت يد غليظة منفردة إلى الأم وجذبتها خارجاً ربع متر ، وانزرق واحد إلى الداخل فسحب الجمل من رقبتـه وألقاه أرضـاً ، وانهالت البلط والفئوس وتلاحمت . . واستمرت تمزق .

كلب السنط [1]

إلتقيت بامرأة تكاد تصل إلى سن اليأس أثناء عودتي من الطاحون ، بعد انحناءة طريق شجر الجميز أحسست بأنها ترغب في أن أعاشرها ، فأوصلت إليها إحساساً خاصاً بعدم ممانعتي ، أقفر الطريق وهرب كل الشجر ـ رغم ضخامته ـ إلى الخلف ، واحتضننا الصمت .

سألتني عن أبي فأشرت لها أنه مات ، وأن أمي تزوجت ، قالت : خسارة ، ولم أدرك عمن انصبت الخسارة : على أبي أم على أمي ، كانت ضخمة وارفة ، لم تكن منفرة ورأيت أنه من المستحسن استبعاد عناصر النفور منها .

عند مشارف البلدة انحرفت المرأة يميناً وسط المزارع فشعرت بالتردد والخوف ـ قليلاً ـ بسبب العفريت الذي يظهر في هذا المكان في عز الظهر ، نظرت إليّ بعينيها المحملتين بكل مقتضيات الإثارة الريفية المكحلة الساذجة ، انتشيت شهوة وسرت خلفها ، توقفت لتحاذيني ثم استفسرت عن إخوتي ، الأكبر لم نره منذ تسعة عشر عاماً لاحتفاظ السلطة به في أحد السجون ليقضي مدة السجن المتفق عليها مع المأمور

---

(١) كلب السنط نوع من الدود الصغير الذي ينمو فوق أغصان شجر السنط بالصعيد المصري .

(ضحكت المرأة لخفة دمي) ، الثاني أعمى ويتعيّش من سكب جزء عم فوق فتحات المقابر ، الثالث معلم ابتدائي ظهر أيام نظرية طه حسين الخاصة بالتعليم والماء والهواء وضرورة تمتع الجميع بهم ، الرابع أنا الذي أسير بجوارك ، ألف جسدك بنظراتي ، وأجهد قدراتي كي أستخرج المقبول من ميزاتك ، سال عرقي وامتلأ الحذاء بالتراب فانحنيت لأحكم رباطه ، والخامس ـ أصغرنا ـ تخرج من عامين وهو الآن مكلف بالقوات المسلحة .

وإخواتك البنات ؟ . . . . الكبرى تزوجت ثم ماتت وهي تلد ، الثانية في المنزل لم تتزوج بعد ، . . . . .

عند كوخ صفيحي ينام تحت شجرة سنط ، توقفت المرأة وأخرجت مفتاحاً من ضفائر شعرها وبدأت تعالج فتح الباب ، ارتكزت أنا على شجرة السنط بظهري ، خلال ثوان قليلة ـ كان كلبان من كلاب السنط يتسللان إلى ملابسي ، الكلاب الدودية روعتني ، خلعت جلبابي وألقيت به أرضاً في جزع ، فتشت ملابسي الداخلية حتى لا يكون الدود قد وصل إليها ، بللت المرأة المفتاح بلعابها عدة مرات وهي تضحك في حبور لانزعاجي ، تعاونت الشمس مع إحساسي ورغبتني فأراقت حمرة جميلة على خدها ، شعرها طويل ناعم ونظيف ، من أدخل أخاك الأكبر السجن ؟ المخدرات ، أسفت المرأة وصمتت ، سألتني عمن تسبب في إصابة أخي الثاني بالعمى ، أخبرتها أن الأعداء عملوا له (عملاً) فمرض وهو في العشرين بالجدري والتهم المرض عينيه ، أسفت مرة ثانية وصمتت ثم فتحت لي الباب .

على حصيرة قديمة جلست ، خلعت حذائي فتناولتها ـ هي ـ وأبعدتها عن منطقة الجلوس حيث أن رائحتها مؤذية ، وماذا تعمل أنت الآن ؟ ، لا شيء أسفت وسألتني عن حال أخي الأصغر ، أفضت لها في شرح حاله حيث أنه أحسن واحد ـ اليوم ـ في البلد كلها وإن كان يعاني من مشاكلنا التي نلقيها عليه بين الحين والحين ، وأنه لذلك لا يحضر كثيراً وإن كان يكتب إلينا ، صنعت لي شاياً ثم سألتني إن كنت أشم رائحة شيء محدد ، نظرت المرأة إلى حذائي وضحكت فازدادت أنوثتها وضوحاً ، أردافها سمينة وجسمها بض ، ذراعاها جميلتان ويداها رائعتان ، خلعت ملابسها وابتسمت لتشجعني ، خلعت فانلتي ونظرت إليها لأبدأ المسألة فابتعدت عني في دلال ، هل ذهبت إلى مصر ؟ لم أذهب ، هل رأيت ما يفعله بنات القاهرة للشبان ؟ لم أر ولكن عندي فكرة عما يحدث ، لماذا مات أبوك ؟ لا أعرف ، استدركت وأخبرتها أنه ـ فيما يقال ـ قد مات في الحقل ، سألتني : كيف ؟ فلم أعرف الجواب ، طيب ـ لماذا تزوجت أمك ؟ لأنها يجب أن تتزوج ازداد وجهها احمراراً ، قالت إنها تود لو تتعرف على أخي الأصغر الذي في الجيش ، أظهرت لها امتناني ، وعدتها باصطحابه ـ في أول فرصة ـ إلى خدرها الصفيحي قالت : سأطعمك لم أرفض ، أحضرت صفيحة من خن الكوخ بها ملوحة ذات رائحة نفاذة ، لم أستسغ الأكل وأظهرت لها ضيقي ، قالت إن هذه الملوحة الفاسدة هي خلاصة أحشاء وقلوب معظم شبان المنطقة ، ضحكت أنا لكنها ـ كانت عابسة ، وقفت المرأة لتتناول شيئاً من رف علوي فاتضح لي أنها جميلة وجميلة جداً ، أبداً لا

توجد بينها وبين من حضرت معي من الخارج أية علاقة إلاّ في ملامح الشكل العام ، هي جميلة ولا شيء آخر ، وقفت واحتضنتها فتدللت وقبلتني ، بدأت تسأل من جديد فأغلقت فمها بكفي وأنا أحتويها ، جسم ناعم ملتهب ، متوهج ، أنثى في قمة أنوثتها ، لا تتكلمي فعالمي كله كلاب جائعة تزحف فوق شجر سنط تحرقه الشمس ، ضغطت عليها بكل قسوة وحنان اللذة ، بدأت تتملمص مني ، ازددت عليها ضغطاً ، أمك تزوجت الرجل الذي كانت تعرفه قبل أبيك ، أبوك أحرق وهو يسرق مزرعة أحد اليتامى ، أختك ماتت وهي تلد قرداً ، أخوك الأكبر . . ازددت عليها ضغطاً ، شعرها تلاشى وصوتها تغير ونما لها شارب ، ضربتها ، ضربتها لأغلق ذلك الفم المشوه ، ضربتها بعنف وبكل قسوة كف اليد ، ذعرت المرأة ، ذعرت ووقفت سوداء مليئة بشعر خشن حتى حوافرها ، حوافرها . . . ، الله أكبر . . . فبصقت على وجهي ، الله أكبر فانطلق الشرر من عينيها ، الله أكبر وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أنت أبوك وأمك وأختك وأخوك ، تقلصت أمعائي وزاغت عيناي وشعرت بفزع الآخرة يلفني في عزّ نهار الدنيا تسطّح جسدي على الأرض ولم أجد لي عموداً فقرياً يمكنه أن ينصب حيلي ، ويسند طولي ؛ سحبتني المرأة المفزعة من قدمي وألقتني خارج الكوخ ، زحفت متعباً عارياً وتسلقت شجرة السنط . .

كان الجو حاراً ، وكنت عارياً تماماً ، حاولت أن أحدد مكان الكوخ أسفل الشجرة ، التواءات وأخاديد شجرة السنط حجبت الأرض بكل ما فيها عني ، ظللت مهموماً زاحفاً تائهاً ألف حول الفروع والأشواك

وجبال الصمغ حتى أرهقت تماماً ، شدتني نسمة صيف فسقطت على قماش أبيض ناصع يسير تحت الشجرة ، انتبه المخلوق لي ، تناولني في انزعاج من فوق كتفه وألقاني على الأرض وفعصني بمـركوبـه وتركني أتلوى وسار .

مجلة نادي القصة ـ يوليو ١٩٧٠

اغتيال

كانوا خارجين من جامع أولاد عبد اللاه فور صلاة العشاء ، كل منهم ينظر في تردد إلى الآخر ، كانوا يحاولون التخلص ممن - أو مما - يشغلهم ، وبدأوا ينسلون إلى دارة الحاج (خ) .

فوق الدكة (التي صنعهـا النجار جبرة ولم يأخذ باقي حقه عنها حتى الآن) - جلس (د) و (ش) ، وعـلى مصطبـة سفلية جلست حـروف أبجدية أخرى ، ووقف حرفان متتاليان غير مباح لهما الجلوس لصغـر سنهما .

دخل صبي بموقد ووضعه قريباً من المصطبة ، كان مرتبكاً بلا دراية فأسقط جمرات على الأرض ، قام واحد - حينئذٍ - بإبعاد فردة المركوب عن النار ثم مد أصابعه في هدوء إلى الجمرات فالتقطهـا وأعادهـا إلى الموقد .

تكلم (د) وقاطعه (ش) ، وطرحا الأمر على الموجودين ، واحتسوا الشاي ، واستحلب بعضهم الدخان وبصق على الأرض ، وأعاد واحد إبداء إعجابه بالإمام الجديد للجامع ، فاعترض واحد وبدأ يسرد الفرق بين صفات الإمامين ، وندد آخر بمـدرس يلعب الكوتشينـة في مقهى فرغلي مرسي ، وأعلن واحد توقعه أن يخرج الشيخ (ع) من اللومان في

عيد الثورة القادم ، وأفرط واحد في وصف البقرة التي سقطت في الجابية فقاموا بـذبحها بغيـة إنقاذهـا ، وانحنى واحد فتي عـلى الموقـد وقلب الجمرات فانبعث دخان ، وطلب واحد من واحد إعارته كيلتي ذرة شامية فاعتذر له مقسماً بأن صومعته قد فرغت من أي حبوب ، وكان الجميع يعلمون أنه كاذب .

ومات الكلام فشد الحاج (خ) الموضوع الأساسي وألقاه في حدة بينهم فلما تباطأوا في تقليب الموضوع الملقى بينهم قام الحاج (خ) ـ مزداداً حدة ـ وكاد أن يصفع واحداً أغفى ، ولعنه ، وعيره بأنه سيطلع مثل خاله ينام في المآتم والجلسات ، حينئذٍ قام حـرف صامت فتـرضاه وسحبـه إلى الـدكـة ، لكن الحـاج (خ) رفض الجلوس ، وظـل واقفـاً . . . محتداً . . . . صامتاً ، ثم اختار ثلاثة : واحداً من الجالسين وواحداً من الواقفين وواحداً تخلف عن الحضور وأمرهم بإنهاء الموضوع .

بقليـل من الإدراك كان من الممكن أن نتبـين الأمـر الـذي انتهى الاجتماع إليه .

أن يقتل الثلاثة المختارون السيدة (ح) .

في أول صباح توجه الاثنان إلى الثـالث الذي تخلف عن الحضـور ليخبراه بالقرار وليتفقوا على موعد تنفيذ قتل السيدة (ح) .

لم يكن الثالث موجوداً ، فتوجها إلى السوق ثم إلى بحري البلد وأكلا عيشاً وطعمية عند امرأة جوالة ، وجلسا في دكان ينفثان المعسل وكان واحد من زبائن الدكان يحكي ما صادفه من متاعب أثناء بيعه القلقاس في

سوق روض الفرج ، وعرج الحاكي إلى أهم نقطة في الموضوع ، فقد التقى بمعلمة تشبه راقصة معروفة ، وعشقته المعلمة لكن الحاكي كان يميل إلى الرزانة في سلوكه معها ، كان يجب أن يثبت لها أنه مختلف جد الاختلاف عن ناس مصر ، حول صاحب الدكان مؤشر الراديو إلى محطة فيها طرب .

وضبط الراديو ومال على (البنك) وبدأ يسمع الخليط ، واستغرق الحاكي من تغلغل حكايته في السراديب ، حط الطير على رؤوس القوم ، حينئذٍ دعت المعلمة العاشقة الحاكي المعشوق إلى زيارتها في بيتها ، وكانت ملامح القوم قد اشرأبت وتكثفت وبدأت تمسح جو المكان ملتقطة أية إشارة تصدر من فم الحاكي لتحللها ـ فورياً ـ إلى همس وعينين وأفخاذ وأنفاس وفم يلوك لباناً ورغبة وفراش وثير بجانبه راديو وكوب شاي ودجاج محمر ، لكن امرأة عجوزاً اقتحمت الحكاية ووصلت إلى صاحب الدكان لتشتري بقرش سكر وبقرش رز وكبريتة وصابونة بستين فضة ، وعند خروجها كانت حلقة اليوم من مسلسلة الإذاعة قد انهمرت في الجماجم فبدأوا يصيحون لها حيث سكنت حكاية الحاكي ووقفت المعلمة العاشقة في ركن تنتظر ، وخرجت المرأة وبيديها ما اشترته لكنها توقفت في طرف الدكان وتوسلت بعينها الرامدة كي تستوثق إن كانت العملة النقدية قرشاً أو بريزة ، وكان الشاي قد فار فوق الوابور وانسال على جوانب البراد فارتفعت من الوابور نيران خضراء وبنفسجية ثم خبت ، وكان الحاكي المعشوق محفزاً لوصل ما انقطع ، وكان الاثنان المكلفان بقتل السيدة (ح) جالسين صامتين .

دقيقتئذٍ ـ وفي آخر الحوازة ـ مر الواحد الثالث المختار ليكمل المجموعة والذي يبحثان عنه ، وقف أحدهما وناداه بأعلى صوته فتنبه الثالث وعرج إليهما ، كانت امرأة في الراديو قد شحنت صوتها بكل الإثارة لتصبها في أذن رجل العصابة وعلى البنك وأرضية الدكان ومخ القوم ، وكان صاحب الدكان قد وضع ساعته المستديرة فوق أذنه ليتأكد من دورانها تمهيداً لصلاة المغرب ، وكانت الجماعة قد اشمأنطت من صوت الثاني عندما نادى على الثالث ، وعاد إلى جو الدكان استواؤه حينما خرج الاثنان ليقابلا رفيق مهمتهما في عرض الطريق .

بلا تمهيد دس واحد من الاثنين المسألة كلها في أذن الثالث ، كان الثالث يسمع وقدمه تصنع كومة تراب ، ثم أخرج علبة الدخان وسف منها وبدأ يلوك ، سألهما هل من الضروري أن تتم المهمة الليلة ؟ نعم : الحاج (خ) قال الليلة ، فحرك الثالث رأسه يميناً وشمالاً رافضاً ، تدخل الأول ليوضح له اهتمام العائلة بضرورة قتل السيدة (ح) الليلة ، فقال الثالث إنه سيذهب الليلة إلى حِضرة سيدي الشيخ سلامة . فقال الثاني : بعد الحضرة ، فترة صمت ، قال الثالث إنه عموماً سيحاول إن انتهت الحضرة مبكراً ، واقترح أن يؤجلا الحكاية للغد ، فترة صمت ثانية ، فلما لم يستجيبا لرغبته في التأجيل قال لهما: ربنا يسهل ، ومضى .

إنتهت الحلقة المترعة من الراديو وأعلن المذيع أن الحلقة التالية غداً ، وبدأت العيون تنسحب من أوكار بعيدة وتتجمع على وجه الحاكي طالبة من عشيق المعلمة أن يكمل ، ودارت ملعقة واحدة صدئة في قلب كل أكواب الشاي المرصوصة على البنك .

كوبري البغيلي

منذ البداية ـ وحتى قبل البداية بدهور ـ يجب أن نثق أن السمك يعيش في الماء ، والوطواط في الخرائب ؛ والمدرسين في المدارس ، والطمأنينة في الموت ، والثعالب في المزارع ، والرهبان في الأديرة ، والخداع في الكتب ؛ والحب في الشقوق ، والسم في دم الحيض ، والحكمة في مؤخرات الأحداث ، وخيركم ـ يا سادتي ـ من فاتته الحكمة أو فاتته الأحداث .

والحديث عن الحكمة يجرنا للحديث عن صديقنا ضابط المباحث ، فقبل أن يحصل على وسام الشجاعة بأيام طعنه لص لم يكن يتعقبه ، وقبض على قاتل ما كان يقصده ، ومعظم القرى ترتكب الجريمة وتقدم لصديقنا هذا الشاي والجثة والقاتل والحكمة ، وفي مرات معدودة قدمت له الجثة والحكمة والقاتل وأخفت الشاي ، وذات مرة أكرمت إحدى القرى ـ صديقنا ضابط المباحث هذا ـ فاستجلبته أولاً ثم قدمت له الجناية والقاتل وأخفت الجثة والحكمة وثلاثة من عساكره والشاي ؛ فاضطر أن يطلق النار على كلب عاق التحقيق ؛ التحقيقات ـ بعوائه المتواصل ، والمسائل كلها تتسلسل وتنساب وتتلوى وتتقاطع تنفرش وقلما تتجمع ، حتى كان يوم مهول ، إذ كسرت قريتنا كل القواعد

المجهولة فقتلت واحداً من رجالها : قتلته في فراشه وحطمت جمجمته وقدمته في الصباح لضابط المباحث العنيد دونما حكمة أو قاتل أو شاي ، بدون ـ حتى ـ سلاح الجريمة إمعاناً في الحكمة ، وظللنا أياماً نداور الضابط ونتهرب منه ونضع بين يديه وفي أوراقه إجابات ماكرة لأسئلة حانقة ، فاضطر أن يداهم البيوت ويفتح الدواليب ويقتحم الزرائب وينبش الصوامع ويقلب المواعين ويغربل تراب الفرن ويستدرج النساء والدواجن والكلاب والثرثارين والأطفال ، وازداد حنقاً فأقسم في النهار السابع أنه سيبتر ذراعه اليمنى إن فشل في العثور على القاتل ، وفي الليلة التاسعة دست إليه رسالة من بصاص القطاع الشمالي ، حينئذٍ عرف صديقنا الضابط أن سلاح الجريمة ألقاه الجاني في ترعة الديروطية ، وبالتحديد تحت كوبري البغيلي .

لو كنت مكان الضابط لما اهتممت بهذه الرسالة : كما ولن يهتم أحد بمسألة قطع ذراعه اليمنى ، حتى لو كان وصف سلاح الجريمة في الرسالة المعماة جاء مطابقاً للتوصيف الذي خمنه الطبيب الشرعي ، ذلك أن كوبري البغيلي ـ يا مؤمنين ـ مسكون ، يقيم تحت إبطيه ـ منذ أبد الأبدين ـ ثلاثة شياطين وعبدة سوداء وقرد ، وروى من نثق فيهم أنهم رأوا بعيونهم الشياطين والعبدة والقرد يخرجون من تحت الكوبري ويلعبون الحجلة فوق سطحه ، ويقال إن الشياطين ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ يمارسون ألعاباً أخرى مخزية مع القرد أو العبدة السوداء ، وكلما حلّ الليل تقف أشجار الجميز غليظة سوداء شامخة عملاقة لتحول بين الفريق ومن يجسر على التوغل في الملعب .

غير أن ضابط المباحث ـ ربما حفاظاً على ذراعه التي أقسم أن يبترها ـ لم يقم وزناً للنصيحة المخلصة المقدمة ـ ملفوفة في أدب جم ـ من شيخ البلد ، وأمر بإحضار غطاس من مصلحة الكباري مؤكداً أنه لم يغطس ـ مثلاً ـ منذ ثلاثة وعشرين عاماً ، وجاء صباح فإذا بالضابط المعاند يقتحم كوبري البغيلي بحملة قوامها سيارتان وقارب وعساكر وغطاس له طاسة وبدلة جلد وأدوات وعدد ، ووقف متحفزاً ـ نشيطاً ـ في المنطقة ؛ وأمر رجاله بالتفرق في الأجناب .

في الأيام التي يحلو لنا فيها أن نكون أكثر حكمة ، نميل إلى المسالمة والمداهنة والطيبة ، حيث تتاح لنا فرصة التفرج على ضباط المباحث أثناء انهماكهم في الاهتمام بشئوننا ، ومنذ البداية كانت المهمة واضحة ؛ غطسة ـ أو غطستان ـ يتمكن الغطاس خلالهما من العثور على الساطور الذي مزقت به قريتنا جمجمة القتيل ، وعندما تجمعنا ـ وحتى قبل أن نتجمع ـ حول الكوبري : كنا راضخين تماماً للتعليمات ؛ لا تقتربوا من الكوبري : فلم نقترب من الكوبري ؛ لا تتكلموا : فلم نتكلم ، لا تطلقوا صراخاً : فامتدت خمسون كفاً وأغلقت الفم الصارخ ، وظل الغطاس على البر ؛ يخلع ملابس ويرتدي ملابس ويخلعها ثم يرتدي جلداً ثم الطاسة ، ولف حوله ثلاثة عساكر يضبطون الطاسة فوق رأس الغطاس فأحسسنا بسعادة قصوى ؛ وأنا شخصياً تمنيت لو تتاح لي فرصة أن أقتل كل ليلة رجلاً كي أستمتع صباحاً بمنظر إرتداء الغطاس للطاسة ، ثم تحرك الغطاس في كبرياء بطيئة نحو المياه مقلداً الشيخ محمد مبروك حينما فتك ـ في كبرياء بطيئة ـ بأخت زوجته في السوق .

إنغمر الغطاس في المياه بجوار القارب فاجتاحتنا قشعريرة ورطوبة ؛ وغاب الغطاس في المياه فكدنا نختنق ؛ ثم طفا ؛ وقبل أن نتنفس عاد فانغمر مرة أخرى وغاب طويلاً حتى تعودنا على غيابه ، ثم طفا رافعاً ذراعه في تبرم ، حينئذٍ صرخ الضابط فيه أن يكون رجلاً ويشد حيله ؛ فما يبحث عنه ليس مطواة أو شرشرة أو موس حلاقة ؛ بل ساطوراً ، ساطور يا بني آدم لا يقل طوله عن ثلاثين سنتيمتراً وعرضه عن عشرة سنتيمترات ووزنه عن أربعة أرطال ، عادت المرأة للصراخ فارتبكنا جميعاً ؛ وتشبث الغطاس بجنب القارب واستند إلى بغلة الكوبري ورفع باب الطاسة الأمامي من فوق وجهه وأعلن أنه عاجز عن الوصول الى القاع ، وكدنا نفهم أن سلوكه هذا ترجمة لرسالة من فريق الشياطين إلينا ، إذ أن الضابط يعتقد أنه القادر على كل شيء ، سواء أكان فوق الأرض أو تحت الكوبري ، ولو سمع لنا لسحب رجاله وقاربه وغطاسه وحل وثاق سيارتيه وعاد ، إذ أن الترعة تظل مملوءة حتى أذنيها بالماء حتى تكاد تعتقد أنها البحر الكبير ، ثم تجف فتتحول إلى بقع طين يعبث فيها الأطفال وجامعو المحار والودع ، إلا منطقة كوبري البغيلي ، تستمر مملوءة بالماء ، غويطة عميقة وحشية مقطوعة العلاقة بباقي الترعة ، يكتنفها ظلام أبدي مرعب رهيب ذو أغصان ونباتات متشابكة تحتضن في شراسة بغلات الكوبري ، لكن أين يمكن لك أن تجد من يفهم ؟ ، وعاد الضابط يصرخ في الغطاس ، وانفلقت الطاسة فشعرنا بالمتعة تهوم حول تجمعاتنا ، وماجت المياه فظللنا نمعن النظر في بقعة الغطاس ، ثم انداحت الأعشاب المتشابكة فازددنا إمعاناً ، وكلما تحركت الأعشاب

أسفل الكوبري حبسنا أنفاسنا ، وقال رجل كسب رهاناً بعبوره الكوبري في منتصف الليل مرتين : إلهي يطلع له أبو درقة . وما هو أبو درقة يا شيخ إسماعيل ؟ أبو درقة هو الحنش ذو الجوهرة التي تضوي في صدره عند الإحساس بالخطر ، وانتحى الرجل جانباً بثلاثة من الصبية قليلي التجارب وبدأ يجاهد ليشرح لعقلهم الضيق كل ما يعرفه عن أبي درقة : وهمست امرأة ذات ذرية بأن الغطاس ـ مؤكد ـ سيفقد القدرة على الإنجاب ، لكن صبية ـ وضح أنها تزوجت حديثاً ـ قصت لذات الذرية عن شعورها ليلة أن تقلبت سبع مرات على الكوبري بعد فك رباط عريسها ، وتثاءب تاجر بقالة مهذار ثم سب الحكومة ، فلما لم يحاوره أحد في سبب سب الحكومة سب الناس ، فلما ظلت عيون القوم ممعنة في المياه تتابع التموجات الدقيقة لحركة الغطاس: سب من يقف بجواره ، فلما لم يقم أحد وزناً لسبابه خبط قفا الواقف أمامه ، وحدثت مهاترة صغيرة مخلوطة بربع شجار أنهاها رجل صارم مكروه بكلام جارح ، والعيون مستمرة في الإمعان في دوامات المياه ، تنتظر أن تستمتع برؤية الساطور الذي حطمنا به جمجمة صديقنا في فراشه ، وحشائش بغلات الكوبري تنداح وتتحرك موشية بارتباك سرى في جذور العالم ، وظل الصمت يتكتل ويتبلور تجمعات حول الكوبري وأجناب الترعة وجذوع أشجار الجميز ، والضابط أسد متماسك رصين يدخن سجائر ، والغطاس غائب في العالم الغويط يبحث عن أداة الجريمة ، واخترق كلب حلقة التجمع ومرق إلى المنطقة الخالية ناظراً إلى الضابط حتى كدنا نعتقد أنه بالحتم سيدلي بأقوال ، غير أنه ـ الكلب ـ قصد

حديد الكوبري وحك ظهره ثم رفع القدم الخلفية اليمنى فاستشرى في الجموع ميل إلى المهاترة ، وأوعز واحد إلى واحد أن يتسللا لحقل القمح الشرقي حيث تصبح الرؤية أكثر إمكاناً ، وكاد الضابط يصرخ فيهما لولا أن الغطاس شرخ المياه فاشرأبت الرقاب ، ولم يلبث رجال الشرطة أن أسرعوا بمعاونته ليخرجوا شمبر صفيح ، وتلوّت التجمعات ثم عادت للسكون وعاد الغطاس إلى الغطس ، وتمكنت الشمس من الصعود أكثر غامرة أعالي شجر الجميز بالنور ، واقترب فقير من الضابط مرتبكاً في وجل وطلب منه أن ينبه على رجاله بمراعاة عدم دهس القمح ، كان ـ القمح ـ رفيعاً هزيلاً يغطي الشط الشرقي ويتدرج منحدراً حتى يكاد يلامس مياه الترعة ، وفعلاً : أشار الضابط للرجال أن يراعوا ما تحت أقدامهم ، واتجه الفقير ليعبر الكوبري ميمماً نحو القمح غير أن الضابط انتهره وأعاده ، ووضح أن الغطاس يهابر لإخراج شيء ، فاندفع الناس محطمين الحدود ثم لم يلبثوا أن تماسكوا وتوقفوا ، وعندئذٍ ظهر الغطاس متشبثاً بحافة القارب ، ثم سحب في معاناة صرة من القماش ذات لون طيني مشرب بحمرة زاهية فألقاها في بطن القارب ، تخلخل الناس فصرخ فيهم الضابط وأسرع إليهم رجاله ، وجاهدت عيوننا كي تعرف ما تحويه الصرة ، صرخ جاهل : الله يخرب بيوتكم : هذه صرة بنت سمعان : فأغلق أحد الواقفين فم الجاهل بكلتا يديه .

كسرنا النظام فاستمرت الصرة في بطن القارب ، أنزل أحد رجال الشرطة عصا ذات سنارة ورفع بها الصرة من بطن القارب وألقاها فوق ظهر الكوبري ، اقترب منها الضابط وجسها بطرف حذائه وأمر أحد

رجاله بفتحها ، كانت تضم رقعة من قماش نسـائي أخضر ومفتاحـاً خشبياً وضفائر شعر ، وظل الضابط ممعناً في المحتويات خابطاً بعصاه القصيرة فوق فخذه ، تعاون رجال الشرطة ليعيدوا الناس الى وقفتهم فلجأ معظمنا إلى تسلق أشجار الجميز ، وقبل أن يستقـر النظام ألقى الغطاس في القارب بهيكل عظمي صغـير ، وفي حرص تم رفعـه إلى الكوبري فصرخت امرأة : يا ضنايا ، وأعلن شيخ ـ أثناء رص عظام الهيكـل جنب الصرة ـ أنـه لصابـر ابن الشيخ مسعـود ، وتعلقت في الأسماع نهنهات ضئيلة لباكية وسط الصفوف ، وروت امرأة موضحة أن الهيكل لابن سعد الأعرج ، وأوضح الشيخ لها أن ابن سعد الأعرج لم يقتل بل أحرق ، حينئذٍ صاح البقال أن الهيكل لابن رزق وبدأ يبسط للقوم أدلته ، غير أن البقال لم يكمل بسط أدلته فقد عاد الغطاس ليلقي بجمجمة لم تحتمل التخمين ، فقد كانت أسنان مقدمة الجمجمة تضوي حاملة سنة ذهبية شهيرة ، يا حفيظ ، رأس سلمان الغازي ، وبدأ شاب ينتحب فسحبه زميلان للخلف ، وصرخ الضابط في إصرار أنه لم يأت هنا إلا ليبحث عن الساطور ، وانتظر الناس أن يكمل ، ضحكت امرأة تلد دون رجل وصاحت بصوت جاد : ومن الذي منعك من إخـراج الساطور ؟ فاستشاط الضابط غضباً وأمـر بإبعـاد الناس أكـثر ، لكن الناس ازدادوا تكاثراً ، فوق أشجار الجميز وحواجز الـطين ومشاهـد القبور ووسط زرعة القمح ، ولو توقف الضابط عند هذه اللحظة وأعلن عن عدم عثوره على ما يبحث لما لامه أحـد ، غير أن حـامل وسـام الشجاعة صمم أن يستمر ؛ وبدأ الرجال يعاونون في تخليص عظمة فخذ

كبيرة متشابكة مع الأعشاب ، فخذ جمل ، فضحك أفراد لهم دراية بالأفخاذ ، وما كادت الفخذ تصل الى سطح الكوبري حتى أعلن واحد قديم أن هذه ـ وأقسم بذقنه ـ فخذة المرحوم الشيخ الحاج حسن ، فعارضه قريب طارحاً اسم المقدس بباوي ، واقترب المتحاوران وسط التجمعات ليقنع كل واحد الآخر بدلائل اعتقاده ، حينئذٍ ألقى الغطاس في وجوه الناس بعظمة ترقوة عليها مزق قماش ، وبدأت همهمات الناس تزحف في حوار مختلط يحتمل معه أن الترقوة تخص ـ لا بد ـ حنونة ـ أو ـ سفيورة ـ أو فريحة ـ أو زوجة عزيز أفندي ، وبدا من الواضح أن الضابط لا يزال منتظراً العثور على الساطور ، وبدأ رجال الشرطة يوسعون المنشر ، أعوذ بالله ، فقرات متماسكة من النخاع الشوكي متصلة بذراع ، عباس القاضي أو جابر الحاجب ، النصف الأسفل لهيكل طويل رقيق به سروال منقط : سعد البنوتة : جزء من القفص الصدري معلقة به بقايا صديري ذي كاتينة ساعة ، حمدان القفاص ؛ وكل تخريجة تسحب في حركتها من الماء إلى الكوبري عيون الناس والتواءات التجمع وبوادر الفوضى وصراخ المهتم وعجب السذج ؛ وأعوذ بالله وارحمنا يا رب ويا ستار ويا خرابنا والضابط يأمر ويتحرك ويدخن ويرص التخريجات في المنشر الواسع فوق ظهر الكوبري ، هيكلان : واحد صغير وواحد كبير وأذرعهما متداخلة في احتضان : الحاج قمحاوي وولده ؛ عظمة ساق ما زال عالقاً بها فردة مركوب : جمجمة مربوطة بحبل ، حجر مشدود حوله أكتاف عظمية ؛ ذراع بها ربابة ؛ قفص صدري يخترقه سيخ حديد ، والناس يمعنون ويشرحون ويتبادلون

الافتـراضات والـوجل ويتكـأكئون للخلف ويتقـافزون فـوق الشجـر ويدهسون القمح ويغلقون الأفواه ؛ والشمس تزحف إلى وسط السماء وتتسمر فوق الرؤوس صابة عرقـاً وجزعـاً ، والأيدي تتبـادل استلام (الأمانات) من الغطاس وترصها في المنشر .

علينا الآن أن نتوخى الحذر في المسألـة ، فلم يعد يهمنـا أن نحب الضابط أو نكرهه أو نراعي مشاهد القبور التي تهشمت أسفل الناس ؛ أو نحافظ على سيقان قمح الرجل الذي يصرخ : يا خرابنـا ، فألف واحد آخر كان يصرخ عن الخراب أيضاً ، ومالت أغصان أشجار الجميز وأسقطت نفراً في الترعة ولم يعد الغطاس يجاهد وحده ليخرج المستور من تحت الكوبري ؛ شـاركه في الأمـر كل ذوي الخبـرة في القفز والعـوم والغطس . وكل لحظة تمر تسحب خلفها الناس من القرى والهياكل من بطن الترعة الصراخ من الأفـواه والاقتراحـات من الذين يعلمـون ؛ وتقدمت امرأة إلى الضابط طالبة منه أن يأمر فيبحث لها عن بنتها وزوج أختها ؛ وتقدم طاعن في السن طالباً البحث عن أطفاله الخمسة ، وقفز أناس من البر إلى المياه ، واختلطت الجماهير برجال الشرطـة بحقول القمح بمشاهد القبور ، واعتدى شرطي على امرأة لاعنة : وطعن صبي رجلاً تحت إبطه بمطواة دون سبب معلن ، وسحب رجل امرأة من ساقها قاصداً أن يلقيها في الماء ، وعابث شاب فتـاة من الخلف فصرخت ، وظهر وسط الناس باعة الطعمية ومجهزو الشاي ومعدو العسل ، وحاول الضابط أن يجمع رجاله ليحافظوا على النشر غير أن أحداً لم يسمعه ، وأخرج الغطاس هيكلين ، لكن الهيكلين سقطا من حافة الكوبري في

الماء ، وتحولت الترعة إلى فوضى ، إلى فوضى متموجة موحلة مختلطة ، ولمعت طاسة الغطاس منفصلة بعيداً عن القارب ، وداست الأقدام الهياكل والجماجم والتخريجات ، وتخلص الضابط من الناس متراجعاً للخلف ، واعتلى ظهر سيارة محاولاً الصراخ ، ثم أخرج مسدسه وأطلقه في الهواء لكن الترعة ظلت تزمجر بالناس ، وتقدم واحد من محاسيب الله وقدم كوز ماء للضابط ، مد يده إلى الكوز ورفعه إلى شفتيه ، لكنه لم يشرب ، بل عاد إلى إطلاق النار في الهواء ، فقدمت إليه صبية ساحبة كهلاً ضريراً ، صرخت الصبية في الضابط ـ منتحبة ـ راجية أن يبحث لها عن أبيها وأمها ، ظل الضابط يطلق الرصاص في الهواء ، أن يبحث لها عن أبيها وأمها وأختها الكبرى ، والكوز لا يزال في يده لم يقرب شفتيه ، . . . وأمها وأختها وأطفال أخيها ، عادت الأقدام إلى الخلف في تراجع شرس ، انفصل الكهل الضرير عن الصبية ، امتدت ذراعاه في الهواء ، اصطدمت بالزاحفين أماماً وخلفاً ؛ عوى الرجل الضرير ، صرخ الضابط : إن لم تتوقفوا فسوف أطلق الرصاص في المليان ، انخلع كوع الكوبري وجانبه الأيمن ، سقط أفراد في الماء ، إمتلأت مياه الترعة بنبات القمح والهياج وأغصان الجميز والغطاسين والقلنسوات والأذرع والسيقان وخشب القارب وأعشاب بطن الكوبري ، ثم بدأ رشاش الماء المتناثر من الأمواج العاتية يصطبغ بلون دموي يشبه لون الحكمة .

عملية خطف أميرة

قلعنا أعواد الذرة الخضراء وشذبناها وصنعنا منها بنادق جميلة ذات دبشك من الطين المغطى بمسحوق الطوب الأحمر ، إجتاحتنا هالة من التوجس الممتع ونحن نترك الحقول خلفنا منسلين إلى القرية ، في المرة الأولى شاركنا ببنادق الطين في الفرح الذي أقاموه بحرى البلد ابتهاجاً ببراءة حافظ أفندي في قضية استدراج « عيل » من أولاد البطران وخنقه وإلقاء جثته في بئر السوق ، حصلنا يومها على كمية وافرة من سجاير الفرح ، وقضينا وقتاً هادئاً ندخن أسفل جذوع أشجار جنينة الحاج متولي حيث استعرضنا ـ في أناة ـ بعض الأمور ؛ وفي المرة الثانية وقفنا منكسي السلاح حزانى يوم مقتل عبد العليم العمدة ؛ كان خارجاً من قصره عندما « بج » بطنه عيار مرصوص بعشر قطع من ذات القرشين المزنقرة ، ورآنا نائب العمدة وسط الهيصة فضربنا بالخيزرانة وسب أهالينا فأصيب عدد منا بكدمات وبكى محمد توفيق وعوف وتحطمت أربع بنادق ، وفي ذلك المساء اجتمعنا في الجنينة واشترينا سجاير من حصيلة استيلائنا على بوادر طماطم إبراهيم بخيت ، مكثنا فترة نرمم شروخ البنادق وأعدنا إصلاح مسائلنا وقبل انتهاء السجاير قررنا اغتيال الحاج غالب نائب العمدة ، وعندما فحصنا الأمر تعذر علينا وضع خطة متماسكة لاقتحام بيت الحاج غالب المنكمش خلف سور وحديقة

وعشرين كلباً ؛ فقررنا قتل شيخ البلد ، إلا أن ثلاثة منا اعترضوا لأن الشيخ الشناوي يمت بصلة قربى لهم ، فقررنا أن نقتل شيخ الخفراء غير أن الرجل كان مشغولاً في تغيير شهادته التي أدلى بها أمام النيابة ضد قاتل فانوس ، ودهمنا الليل دون الوصول إلى قرار ، فعدنا الى البلد وجلسنا تحت الكلوب نحاول ترميم بنادقنا ، وبدأنا نتذكر بالخير محمود ابن عمتنا دولت والذي كان يتمتع بذكاء متوقد ونشاط مذهل غير أن كلبة سعرانة نهشته فأودت بحياته . أصابنا الحزن فترة فقام سيد أبو محمود وقلد أبا أحدنا وهو ينهر ابنه كي لا يذهب وسط حقول الأذرة فيخطفه المطاريد والفلايت ويطالبوا بالدية ، فأثار ذلك معركة صغيرة وانقسمنا أحزاباً وبدأنا نتناهش ، مر سيدنا ونظر إلينا (وهو ليس أعمى) بنصف عين فاضطررنا أن نتجمد فجأة ونفتعل الوقار ، حينئذٍ طلب منا مدني أن نقوم بهجوم مفاجىء على أولاد بحرى البلد وهاص حزب مدنى وأطلقوا أعيرة من أفواههم واقترح عبد الكريم زكي (الذي غرق بعد ذلك في ترعة المرج) أن نخلع الكلوب فبدأ بعضنا يهز العرق الخشب فتطوح الكلوب غير أن رجلاً من الشعايبة طردنا بعيداً وسب أمهاتنا ، تجمعنا من جديد تحت الكلوب وبدأنا نتنفس ، التراب يملأ الجو والصراصير تئز والصمت ملعون ، مرت امرأة وئيداً وهي تحمل مقطف دقيق فجرى وراءها اثنان ووضعا عصا البندقية بين قدميها ، تشنكلت المرأة وهوت وانفرش الدقيق وملأ الشارع ، اختفينا في ظلام الأزقة ومداخل البيوت ونحيب المرأة يشرخ الكون (عندما ذهبت المرأة الملعونة وشكتني لأبي ، أقسم لها أني لم أخرج من باب البيت وأني نائم من المغرب في الرواق) ظللنا مختفين

حتى رحلت المرأة بدقيق مجموع من التراب ، وجلسنا تحت الكلوب :

ـ نخطف أميرة بنت عبد . . .

ـ لا . . . نضرب عمك عبد التواب .

ـ نسرق نعجة الحاجة فريجة .

ـ نضرب الحاج زاهر .

ـ نحط داتورة لعبد الرحيم الشمندي .

ـ نموت الشيخ سيد مبروك .

ـ نخطف أميرة بنت عبد . . . !!!

ـ نجيب رأس هدهد ونحمصه وندسه في فرشتها .

ـ لا . . . نعمل لها عمل .

ـ نروح عند الغوازي .

ـ ما فيش فلوس . . .

ـ نسرق قصب الحاج محمد أبو حسنين .

ـ نخطف أميرة بنت عبد . . . .

ـ نخليها وهي ماشية ونشلح هدومها .

ـ نضرب أبوها في الدكان .

ـ نسرق حمارة جلجلة .

ـ نقلع قلقاس عبد العزيز أبو خليل .

ـ نحط تراب في طبيخ بيت ملك .

ـ نخطف أميرة بنت عبد . . .

ـ خلاص . . . نخطف أميرة بنت عبد . . .

وبدأنا نتحنجل ونرقص مزهوين بمتعة .

* * *

في عصر اليوم التالي اخترقنا الشوارع وبنادق الطين معلقة في أكتافنا ، صامتين مسرعين جادين نبدو في أشرس وأصلب صورة . اخترقنا شارع الشناوي وعرجنا إلى درب الهايض ، الدرب ضيق وواحد يمتطي « جحشاً » محملاً بالبوص يسد الدرب ، اضطررنا أن نبطىء فضاق صدرنا ، أسرع رمزي جاد وتسلل من أسفل الحمولة وتقدم الجحش ، جذب قياد الجحش من يد راكبه فانزعج الجحش والراكب ، صرخ الرجل في الولد وصرخ الولد في الرجل طالباً منه أن ينتحي جانباً حتى نمر ، نظر الرجل خلفه غاضباً فلما رآنا ـ حاملين سلاحنا ـ ضحك في استهانة ، ضايقنا سلوكه ـ فنزل أحدنا على مؤخرة الحمار ضرباً ، اهتز الحمار وقفز وانهارت الحمولة وتحتها الراكب على الأرض ، ظل أحدنا يطارد الحمار والرجل يصرخ أسفل البوص، ثلاثة أو أربعة ضربوا الرجل بالدبشك على رأسه ، وقفزنا فوق المكان وبدأ كل واحد يسير خلف الآخر معتدلي الظهور ، سأل أحدنا من يليه في الصف : عن المكان الذي سنخطف منه أميرة : البيت أو الدكان ، ضرب أحدنا السائل على ظهره بعنف اتجهنا يساراً وعيوننا تمسح الدروب خوفاً من ظهور أحد آبائنا ، اصطدمنا بمتسول متكور أسفل حائط ، كان لعابه يسيل فوق صدره وعيونه كابية ورأسه ينتفض ، نبهناه أن يفسح لنا الطريق فعوى الرجل طالباً من الله أن يطيل أعمارنا ماداً ذراعه المنتفض إلينا ، مد أحدنا يده وصافح يد المتسول ساخراً فضحكنا وانتشينا ،

وملأ أحدنا كفيه تراباً وأسقطها على رأس الرجل ، قام الرجل نصف قيام منتحباً مستغيثاً فخبطه أحدنا بقدمه فوق ظهره ، مر رجلان من قبلي وأخذا يهشان فينا لكنهما كانا يضحكان .

القربان

لا نعرف ـ بالتحديد ـ متى حدث ذلك ، لكنه بالتأكيد حدث ، ورد ذكره على لسان أبي ، ولم تنكره أمي ، وثرثر فيه يحيى حقي ويوسف إدريس وخليل عيسى الغار وعلي الجهيني والخواجة بسادة والمقدس بباوي وعبد الودود الأخنف ، وعبد الودود الأخنف كان أكثر القوم إلحاحاً في تأكيد حدوثه ، ويوسف إدريس حاول مستميتاً أن يحدد زمان حدوثه وتجرأ ذات مرة وقال إن ما حدث حدث منذ زمان طويل ، وعلى وجه الدقة أيام الكوارث التي اجتاحت سدوم وعمورية .

على أننا ـ في عصرنا القائم ـ لا نملك دليلاً محدداً يمكن لنا أن نقف على مادته لتحديد ذلك الوقت ، لو أن الشيخ علي ـ فقيه القرية المتبحر ـ لا يزال على قيد الحياة ، لكان منحنا ما نستند عليه ، فقد كان الشيخ علي يملك كتاباً أصفر مطلسماً ، قيل إن القرية ظلت تتوارثه سراً حتى انتهى الأمر بالكتاب إليه ، وقيل إن الشيخ علي مات محترقاً والكتاب في حوزته ، بل قيل أيضاً إن الشيخ مات بسبب محاولته فك الطلاسم الحاوية كل ما نبغيه من تفاصيل ، ثم قيل ـ وما أكثر ما قيل ـ إن قرينة الشيخ الشهير قد اصطحبت كتاب القرية الطلسم مهاجرة به إلى قريتها تلك الواقعة خلف الجبل الأزرق في المكان الذي تغيب فيه الشمس .

ولا أنكر أن معظم ما اختلف عليه قومي كان زمن الحادث أو بدايته أو مكانه ، البعض يعتقد أن قبلي البلد مكان مناسب للبداية حيث جامع الأمير سنان وقبره وشاهده ، وآخرون يعتقدون أن بحرى البلد أكثر تناسباً للبداية ، فهناك كنيسة الأنبا سرابامون وقبره وشاهده ، وفريق ثالث ـ ومعظمه من سلالات غريبة عن البلدة ـ يؤكد أن ما حدث بدأ في الوسط حيث تكثر البيوت السرية ، ومنازل البغاء وتجمعات الراقصات وجوقات الغوازي .

لكن واحداً من قبلي أو بحرى أو وسط البلد ـ حقيقة ـ لم يحاول أن يشك في الحدث ذاته .

ـ ١ ـ

والحدث ذاته بدأ في ظهر نهار جمعة (في رواية عبد الودود الأخنف) .

وفي صباح يوم سبت النور (في رواية المقدس بباوي) .

كان أحد رجال قريتي جالساً على رأس حقله يردد مواويل الصبر الشهيرة حينما ثقل لسانه وتلجلج فارتبك الرجل وفزع ، لم يخرس تماماً لكنه فقد سيولة الكلمات المتدفقة من حنجرته ، تهتكت كلماته في قاع الحلق ثم خرجت مطحونة . . . مجرد حروف لا يربط السابق فيها باللاحق إلا تهتهة عواء ممطوط متوتر .

وظل الرجل في مكانه وحيداً يحاول معالجة إخراج الكلام من حلقه ،

تعاونت الشفتان واللسان وقاع الحلق وعضلات جوف الخدود وسقف الخشم كي تربط الحروف وتصحح الكلمات وتنظم ترتيب الجـزئيات وتغلي الأوشاب الصوتية ، لكن محاولة الرجل فشلت .

وهـرع الـرجـل إلى داره متـأبـطاً رعبـه ، ليس متـأبطـاً ـ فقط ـ رعبه . . . بل وقاضماً لقمـة كبيرة من الـرعب تتخبط في فمه وتـدفع بالصفرة والفزع والوجل إلى كل كيانه .

وهرعت قريتي إلى رجلها تقف بجواره ، من حضر ليفتح الكتاب ويفك (العمل) ، ومن جاء ليفصد الدماغ وما بين الكتفين ، ومن أتى ليأخذ قطعة من ملابس المصاب ليحرقها كي تخطو عليها زوجه العاقر سبع خطوات ثم تستحم في ليلة مقمرة بماء مذبوحة فيه ضفدعـة ، ومن قدم ليفسر الحدث كله ويعلقه في رقبة الكفر الذي انتهك حياة المصاب وجعله يتخلى عن دينه فلا يزور مشاهد القديسين .

وقريتي لئيمة ، تنفعل وتصرخ وتواسي وتفتي ، ثم تترك الأمر في نهاية الأمر لصاحب الأمر ، حيث تعود إلى خـدورها مقتنعـة أن ما حـدث واجب الحدوث ، فلا بد بين الحين والحين من واحد يلدغ بعقرب أو يغرق في النهر أو يسقط عليه حائط أو يهوى من فوق نخلة أو يخرج له عفريت هواش الشهير ليرعبه ويشله ، أو تناوره عبدة السواقي لتجرفه معها إلى بطن ساقية أو جوف هويس.نعم : قريتي لئيمة وتعلم جيداً أنها ـ بين وقت وآخر ـ لا بد أن تستقبل حادثاً كهذا : نسبة قدرية محددة من رجالها تقدمها قرباناً للزمن ، ليحمد الله ـ بعد ذلك ـ كل من لم يكن مصاباً .

وكادت قريتي تنتهي من فلسفة الحادث تمهيداً لأن تضع ذراعها تحت رأسها وتنام .

لكن الأمر لم يتوقف عند مجرد رجل واحد يخرس ، ففي نهاية ذاك اليوم فقد تاجر حمير النطق دون أن يخرج من داره ليواجه عفريت هواش أو عبدة السواقي .

وقبل أن تفيق البلد من وجلها خرست امرأة متدينة ، وفي شرق البلد نهش ثعبان لسان المشرف على الأسواق ، وانشرخ لسان صانع تماثيل ، خمسة ، ستة ، ستون ، مائة ، كل القرية ، حتى خطيب مسجدها الورع ، الأبيض كالحليب ، الطيب كنبي ، المؤدب كبنت بنوت ، الشهم كفارس ، الشجاع كابن أبي طالب ، هذا الخطيب المفوه : انفتح فمه عن آخره وهو واقف على المنبر يحث المؤمنين على الصبر ونبذ المعصية والتعلق بحبال الخالق ، وظل فمه مفتوحاً حتى تنبهت إليه الجماهير ، فهرعوا إليه وحملوه في جو مذعور مرعوب مليء بالمواء والنقنقة والانزعاج .

لا بد من الاستعاذة بالله ولا بد من مصمصة الشفاه . . .

لكن قريتي خرست ، إنشل لسانها وذابت حراشيفه وفشل في صنع أي حرف من تلك الحروف العظيمة التي تكون الكلام ، خرست وأصاب الذعر جسدها والدوار رأسها ، وانفتحت عيونها رعباً ، أصابها الداء فظلت تجري يميناً ويساراً ، وتلج بيوت القديسين ومشاهد المشايخ وأنصار الله ، تدق الخردل والحلبة والدمسيسة وحلف البر والخلنجان

وتصنع منه مزيجاً تشربه على ريق النوم ، تعرج إلى المقابر فتسف التراب ثم تنزل إلى بطون الترع ومسارب المياه تستحم أو تدهن جسدها بالوحل ، تتوسل إلى الرب في المذابح - على ضوء الشموع - ثم تؤدي صباح كل يوم ركعتي صلاة الخوف ، تقطع جريد النخيل وتصنع منه صلباناً وتنام تحتها في الليالي المقمرة ثم تنقض الصلبان وتهرع إلى باحة المسجد لتبكي وتندب وتستصرخ الواحد القهار ، تناوش داءها الرهيب أو يناوشها الداء الرهيب فلا تعود إلى نفسها إلا والمستحيل الأبكم متقوقع داخل خشمها ، عاجزة أن تجمع الحرف جنب الحرف أو ترص الكلمة وراء الكلمة لتفشل في آخر النهار في تكوين جملة ، أو تنجح - في حالات نادرة - أن ترص الحرف جنب الحرف والكلمة وراء الكلمة لتكتشف - في آخر النهار - أن الجملة التي وصلت إليها ليست الجملة المقصودة ، كلام مبتور مفتت مهشم ممزق يتسرب من أفواه واسعة يطن داخلها لسان من اللحم الطري البارد الراقد وسط بحيرة لعاب .

ومحاولات شاقة تلك التي بذلوها كي يصلوا إلى سر النكبة وتعليل المصيبة ، لجأوا إلى بعض ذوي الدراية والخوارق في المناطق المجاورة وذبحوا لهم الخرفان والديوك الرومية ، وعانوا من بلع الأحجبة أو مضغها ، وعانوا من القفز فوق الحفر الدائرية المملوءة بالنار المعبق بالبخور وذيول الفيران وأرجل الزواحف .

ثم استعانوا بمن يمر بهم من الغجر والأعراب ، وامتلأت القرية بالدجالين والسحرة وأصحاب الرؤية ومعاشري الشياطين ، فلما ظلت المحنة قائمة سافرت وفود منهم إلى كردفان وسيوه ووادي المساخيط .

وكل واحد له تفسير وتبرير ، فتوى من الواحات تقول إن واحداً من أهل القرية ـ لا بد ـ قد قارف سوءاً مع أمه أو أبيه ، ومقولة أخرى أن واحداً من أهل القرية لا بد قد مارس العيب على أجولة الدقيق فغضبت (النعمة) على البلد .

وربما كانت آخر محاولات حل الرصد المعمول للقرية ، أن أشير لها أن تقوم بذبح طفل يتيم أحمر الشعر ، وأن يلطخوا بدمه إليات ومؤخرات الرجال وبطن أفخاذ النساء ، فلما قامت البلد بتحضير العلاج على طفل اختلسوه من نجع مجاور ؛ ولما افتقد النجع المجاور طفله اليتيم أحمر الشعر ، وبعد أن نمى إلى علمهم أنه تحول إلى عقار لشفاء البلد من الخرس ، قامت النجوع الخانقة بمحاصرة البلدة ، ثم اقتحموها وذبحوا أبناء لها ورجالاً ، وسبوا ثماني نساء ، وبالوا على وجه مائة شيخ من أعيانها ، لتتوقف قريتي بعدها عن تجريب أي حل آخر .

ـ ٢ ـ

ظل الذعر كابساً على صدر قريتي صامتاً وحشياً وعراً ، صحيح أن الحقول جفت واجتاحها الفقر والصفرة ، وصحيح أن بياض البيوت تهشم وسقطت القوالب من أصداغ الأبواب ، وصحيح أن حيواناتها أجهضت وذوت ، وصحيح أن التراب عفر الوجوه واللحى والعمائم . . .

لكن ذلك ـ كله ـ لم يكن يهم قريتي ، الذي يهمها هو لسانها ، فلم تكن البلد مرتبطة ـ نهائياً ـ بالعمل اليدوي ، هي في مجال آخر ؛ قرية

متاجرة كل كبارها ورجالات أعيانها تجار : تجار عجول وجواميس وفراخ وردة ونخالة وعسل وحبوب وخضراوات ؛ يعتمدون أول ما يعتمدون على تلك العضلة الكنز : اللسان ، بلسانهم يجاملون ويجادلون ويستدرجون ويقسمون بالحي القيوم والكتب المقدسة ويمدحون ويكذبون ويغتابون ويدفعون ويدافعون ويسامرون ، لسان مرن متحرك يظل يلعب داخل الفم ثم يفرز في الوقت المناسب الجملة المناسبة ، يهمس بأرق وأنضر وأجمل الكلمات ، ويفح بألعن وأقسى الكلام ، يشم ويتذوق ـ هذا اللسان العريق ـ ويلف ويدور في الأسواق والأفراح ليعود للبيوت بأوفر ربح ، لسان حلو متفتح يتغنى بالموال فيهز كل جسد المنطقة بالرقص ، سلس طروف لين مسرور يتقلب في أعماق الحكمة والأساطير والحكايات ، فلكم غزا أبو زيد ـ على لسان قريتي ـ الأصقاع والمدائن فانتصر ، ولكم قفز علي الزيبق فوق الأسوار وأسفل الحوائط واختفى واحتمى بلسان قريتي ، وكم تجول (حسن) المغني الشهير باحثاً عن (نعيمته) وبسط له لسان قريتي السهول والوديان لينعم ويغني ويلتقي بمعشوقته ، وحتى تلك الحكاية القديمة المخيفة : حكاية الرجل الذي قتل أخاه ومزق جثته ووزعها على بقاع المنطقة ، انتهت على لسان قريتي إلى حكاية دافئة حالمة تجمع خلالها زوجة المقتول أشلاءه المتناثرة وتعيد إليها الحياة .

لا حول ولا قوة إلا بالله ، فها هو لساننا العريق يتقوقع ويتقلص ويتخدر نائماً على لفافات الكلام المتهتك المتساقط في قاع الحلق ، وها هي المواويل الخضراء تتيبس والتعليقات المرحة تتخثر والضحكة ذات

العمق والاتساع تتهدل ، ولا يبقى في الجو سوى الكآبة والفحيح .

- ٣ -

ولقد مرّ على شأن قريتي هذا زمن ، قيل شهر وقيل عام وقيل قرن ، قبل أن تتماسك وتصلد وتسحب جسدها المكدود من بين المقابر وبيوت القديسين والاستحمام في المياه المضفدعة ، لتعود إلى حقولها وبهائمها وزرعها ونخلها وكل شئونها ، أضناها الجوع والعرى وسخريات القرى المجاورة ، وارتج عليها الأمر أسرعت فأمسكت بزمام الأمر حتى وهو مرتج ، وبدأت تدير ـ حزينة واجفة ـ ما تبقى من مسائلها . . . تحركت الأذرع والسيقان والعضلات لتدير السواقي المخربة ولتفتح القنوات وترفع التراب وتثقب الآبار وتحفر المسارب ، تحركت قريتي هزيلة صامتة خرساء إلى أرضها وأشجارها وأوانيها وكوانينها وأفرانها ومرابط حيواناتها ، الخرس مصيبة لكن الجوع كافر ، وإذا كان الكلام ضرورة فإن حق الأمعاء أعلى من أي ضرورة ، حينئذٍ بدأت قريتي تعيد في بطء وأسى ترتيب أوراقها ؛ فإذا كان لسانها قد مات فإن باقي أجهزتها قائمة حية تعمل : العينان والذراعان والقدمان وآلة التناسل والقلب والمخ ، وعلى طاقة اللسان وقدراته أن تتسرب إلى باقي كيان الجسد ، فتلجأ قريتي إلى لغتنا الأولى البدائية القديمة فتمسح عنها الغبار وتعيد إليها طلاوتها وجدتها ، الإشارة ، فن الإشارة ، ذلك الفن العريق الطريف ، ذلك الحل الاحتياطي لأي أزمة تواجه اللسان .

وبدأت البلد تنمي فاعلية لغة الإشارة ، حقاً . . . قد تموء وتنقنق وتمط الأصوات لكنها مع حركة اليدين والحاجبين والفم وإيماءات الرأس

استطاعت أن تنسى ، تنسى أو تتناسى ، هي على أي حال تتحرك ، تتحرك بعيداً عن ذكريات الأيام الأولى للمحنة وقبل أن تذبل آخر قدراتها على الكلام ، عندما اتضح لها أن القادر على تكوين جملة يتساوى مع القادر على فركشة جملة ، هي على أي حال تتحرك ، تتحرك إلى بهائمها لتخرج بها إلى الهواء الطلق ، وإلى مزروعاتها وأشجارها تنميها وترعاها ، وإلى بيوتها تعيد بناء حوائطها المتهدمة ، وإلى مصاطبها تزيلها تماماً من أمام الأبواب فلم يعد ما يدعو إلى السمر ـ جلوساً ـ فوقها ، ثم لم تلبث أن ظهرت في الأفق مساجد بلا مآذن حيث استبدل الناس بالعقيرة المؤذنة مجرد خبطات فوق الصفيح ـ أو الطبول ـ داعين لأداء الفروض ، ثم عظم شأن العينين والأذنين ، وأصبح الإنصات لأقل أقل فحيح واجباً ، والانتباه لأقل أقل حركة ضرورة ، وعكفوا على فن الإشارة يطورونه ويبدعون في حركته ، ليس فقط في مجرد التفاهم السريع العاجل بل وفي رواية الحكايات ، حتى وصلت قريتي إلى أن تقص به الأعاجيب ، حكايات أبي رجل مسلوخة والغولة والشاطر حسن والخشتبان وبدر البدور ، بل ووصل الأمر أن يختزل الذراعان كل قدرات اللسان فيحكيا ـ حتى ـ النكتة واللغز والأحجية والنادرة ، إلى أن جاء وقت على قريتي كانت تحكي ـ نعم تحكي ـ فيه نوادر عن رجل كان يتكلم ، تماماً كما نحكي الآن نادرة عن رجل كان أخرس .

ـ ٤ ـ

انتعشت الحقول والشواطىء رغم ذبول اللسان ، لكن تجارة قريتي

بارت ، نعم : من الممكن ـ مثلاً ـ أن تتعامل مرة مع تاجر أخرس ، لكنك لن تستطيع التعامل كل مرة مع كل تجار القرية البكم ، صحيح أن التجار حاولوا أن يستعيضوا بالأيدي عما لم يستطيعوا تبيانه بلسانهم ، لكن للتجارة شأناً آخر يحتاج إلى همس وصراخ وإقناع ومسايرةَ ، وإذا كانت قريتي لم تأخذ زمناً جسيماً لتعود إلى حقولها إلا أنها عجزت تماماً عن العودة إلى عالم التجارة ، إذ أن الحقول ـ في النهاية ـ تحت سيطرة أهلها ، أما التجارة فإنهم مجرد طرفَ فيها ، طرف وجد مشقـة ـ وأي مشقة ـ لإقناع الأطراف الأخرى بالعامل معه ، ولا سيما وأن الأطراف الأخرى هي تلك القرى المتنافسة المتزاحمة في الوادي الواسع والتي اصـطدمت كلها بقريتي أيام ذبح الطفل الأحمر الشعر .

وأقوال كثيرة وردت إلينا في هذا الخصوص ، منها مثلاً ما أشيع من أن التجار انهاروا ثم لم يلبثوا أن ذابوا وسط الفلاحين واندمجوا فيهم وعادوا ملاكاً أو مستأجرين أو عمال أرض ، ومنها ما قيل من أن التجار تحولوا إلى مجرد وسطاء محدودي الجهد داخل معاملات أهل البلد فقط ؛ ومنها ـ مثلاً ـ أن التجار قد هجروا قـريتهم وتسللوا إلى قرى أخـرى بعيدة ومتناثرة يمكن لكـل قريـة أن تتحمل تـاجراً أخـرس : تاجـراً واحداً أخرس ، وكل ذلك يعني أن قريتنا بدأت تبحر نحو الشاطىء ، وأنها بدأت تبحث لها عن شئون أخرى تتفق مع كل درب تلجه ، ومما يحكى أن قريتي بعد أن فقدت أسمارها ومجالس أنسها ووجدت صعـوبة في إبلاغ حكاياتها وفضائحها وشكاياها والحوادث الفردية اضطرت أن تخلق تجمعـات أخرى لا لسـان لها ، تجمعـات لهـا وسـائلهـا الخـاصـة في

الاستمتاع ، ذبل اللسان وانكتم الصوت ، هذا صحيح ، لكن البلد لجأت إلى الأكف ، إلى كفيها ، تعثرت في البداية وظل الكف يخبط في الكف مؤدياً مهام صغيرة : النداء أو الإستحسان أو الرفض أو الغضب ، ثم لم تلبث الأكف أن صنعت لها تصفيقاً خاصاً مريحاً ومسلياً ، فن وليد ـ فن التصفيق ـ بدأ يدخل في دمها ونخاعها ويحل محل المواويل والحكايات والأسمار والنوادر وكل ما قد يستعان فيه بالحديث ، بالحروف ، بالكلام ، بالرأي ، بالحجة ، ووجدت بلدتي ذاتها تتحقق في التصفيق ، وفي تنوع التصفيق ، فيكفيها التصفيق مؤونة التسلية ، فتقيم به الليالي والحفلات ، قد تستعين بمغن من خارجها لكن المرح والانتشاء والاندماج ينبع لا شك من تلك الأكف المدربة الفنانة الجزلة ، بل وأصبح من السهل أن يقام السامر دون مغن على الإطلاق ، حيث تنسال الراقصة وسط الحلقة مهتزة على وقع التصفيق السار المغموس في عمق الأعطاف والقلوب ، تصفيق على الكفين وبالكفين وعلى الظهور وعلى الركب وعلى الخدود وعلى السيقان ، تنويعات وإيقاعات متولدة من رغبة حقيقية أن تستمتع قريتي ولتنسى ما مر وما مضى ، وحتى جاء وقت على أهل بلدتي غزوا فيه ليالي وأفراح القرى الأخرى رغم كل الحواجز ، فتجد في القرى الأخرى المغني المبدع أو الراقصة المبدعة أو العازف المبدع لكنك ستجد حتماً كل (المصفقين) من قريتي .

وما فشلت التجارة في تقديمه لقريتي نجح فيه فن التصفيق ، العرس يقام في نجع وراء الجبل فيأتي المتعهد إلينا ليحمل أفرادنا كي يقوموا ، وأزال الفن ـ كعادته ـ كل التحفظ والخوف الذي حد من حركة قريتي

زمناً ، واعترفت القرى ـ جميعها ـ بحق قريتي في المشاركة في أي أفراح أو مناسبات ، وتعدى أمرها مجرد جوقات التصفيق إلى تـدريب الغوازي وتجهيز الراقصات من بناتها الصبوحـات اللدنات الجميـلات ، واهتز الوادي كله أمام ذلك الجمال الساحر الأخاذ الأخرس الذي يتراقص محمـلاً بكل الإثـارة ، وارتاح التجـار القدمـاء أو أحفادهم أو أحفـاد أحفادهم إلى هذه السوق الجديدة التي يمكنهم أن يتلمسوا في ازدهارها رزقهم فـأكثرت البلد من الجـوقات : غـوازي وراقصـات وزمـارين ومصفقين ومنظمين ومتعهدين ، وانهال المال ليعوضها عما فقدته بضياع لسانها ، ولم يحزنها أن يتحول خشمها إلى مجرد فتحة خربة تطلب الغذاء أو تتنفس به فقط ، وما كان عبثاً وعيباً أصبح في عهدها الجديد فائدة وميزة ، وامتلأت قصور تجار قرى الوادي بالمربين والمربيات من قريتي ، هم ـ وهنّ ـ كـاتمـو أسـرار البيـوت وحفـاظ مكنـونها ، هم ـ وهنّ ـ المشاهدون فقط ، المغلقة أفواههم عن كل ما قد يجرح أو مـا يهين أو يعيب .

ـ ٥ ـ

ووصلت المسائل الجديدة بقريتي إلى ذروة الانتعاش ثم مضى الدهر الذي كانت تنتدب فيه أبناءها وبناتها لإحياء الأفراح والأسمـار حيث بـدأت تتعهد هي أن تقيم الأفـراح والأسمار ـ ومـا قد يجـد ـ داخـل مـربعها ، وانتشت بـالميادين المـزدهـرة بـالفـرح والـرقص والتصفيق والحبور ، ثم لم تلبث الأفراح والسعادات أن مارت وخرجت من البيوت والميادين والشوارع إلى الخلاء ، إلى الحقول ، واشتهرت عائلات بتقديم

أفخر الطعام ، واشتهرت بيوت بتقديم أفخر الراقصات ، واشتهر أسر بتنظيم أثمن وأفخر الجلسات ، وانتبهت البلد إلى العنب فجففته وقطرته ، وعصرت القصب وخمرته ، وحفرت جحوراً طويلة أسفل البيوت وخزنت في قبابها الجعة والعرق الزحلاءي ، واستطاع أفراد لهم نبوغ خاص أن يتحدثوا الكثير من وصفات تقوية الباه ، وانتشر الحشيش والخشخاش وغطى مساحات واسعة من زمام أرضنا ، وضاقت البيوت بأي جلسات أو مسامر فخصصت للنوم أو التصنيع على أن تكون المتعة في الهواء الطلق ، هناك خارج القرية الصامتة الخضراء حيث أقيمت الخيام والعشش والشاليهات الجميلة ، وحاول القمح أن ينمو فانكسرت سوقه واصطحب الأرز والذرة وانسلوا إلى بطون القنوات حيث حاولوا النمو في البقع المنزوية ، ثم لم تلبث قريتنا أن رفضت هذا التسلل فحرمت في قانون مشهور زراعة المحاصيل المجهدة للأرض ، وعدد القانون هذه المحرمات فشملت القمح والذرة . . . والأرز والفاصوليا ، ولم ينس القانون أن يشجع المزروعات ذات التأثير البعيد المدى في الاقتصاد القائم (يراجع في هذا الشأن قصة عباد الشمس) .

ويقول بعض المهتمين بحركة البلد في تلك الفترة إن هذا التحول قد أنتج الكثير من الضحايا ، وأنا أؤكد هنا أن عدد ضحايا قريتي في تلك الفترة الهامة لم يزد عن عدد أصابع اليدين والقدمين وبعض أصابع أيدي وأقدام الجيران ، والخبثاء يقصدون بالضحايا هذا النوع الكسول من الفلاحين ورعاع الأرض الذين تجمدت قدراتهم عند زراعة ما لم تعد القرية في حاجة إلى زراعته ، وصحيح أن البعض قد تحول إلى زراعات

ظهرت أهميتها وضرورتها ، لكن الكثيرين ـ الذين أصبحوا ضحايا ـ تمسكوا بزراعة الحبوب ، وتحايل بعضهم على قانون تحريم زراعة الحبوب وتشجيع زراعة (المزاجات) ، فزرعوا القمح خفية وسط نبات عباد الشمس ، فاضطرت السلطات أن تجرد المنطقة نقرة نقرة ونظفت زمام القرية من كل ما رأته ضاراً من مزروعات ، وقدم البعض إلى المحاكمة (فصدر الحكم بالحبس على فلاح ضبطت في حقله مجموعة من أعواد العدس ، كما نفيت أسرة في القضية رقم ١٠٣٣ ج وأخرجت من القرية كلها لقيام أفرادها بتنظيم عصابة لتهريب بذور الفاصوليا ، وهناك عدة قضايا متنوعة لا داعي لحصرها في هذا الحيز) .

باستثناء تلك المسائل القليلة الأهمية لم يشغل قريتي شيء ، تقهقر المناوئون للتقدم وانهزم عشاق الحياة الأسرية الكادحة ، وانكسرت رقبة مجموعة من الأفراد ، بعدها عرفت البلد طريق السعادة الحقيقي دون أدنى معارضة ، وعملت على زركشة أمورها وتنسيق شئونها ، والتودد التام للقرى المجاورة حيث داومت على إرسال البعثات دعاية وإعلاناً عما يمكن أن تستزيد قريتي في تقديمه من وسائل متعة وترفيه لمن يقضي إجازة وسط شاليهاتها الفاخرة .

يقول هـ. ج. ويلز في سفره « معالم تاريخ الإنسانية ـ ص ٦٦٠ ـ الكتاب السادس » : (كانت دور الحريم والترفيه مكتظة بالغواني والراقصات والمضحكين والممثلين والوسطاء والحراس ، والكل يلتفون بالرواد والاغنياء يحاولون أن يحظوا بعطف الضيوف ، ذلك العطف الذي ملأ الدور رياشاً والخزائن ذهباً والعقول متعة ، ولقد توقف الزمن

خارج هذه البلدة رافضاً أن يقتحمها حيث لا بد أن نعيد النظر في معنى الخلود) .

- ٦ -

في أحيان كثيرة لا نستطيع بسهولة أن نغادر أماكن نحبها ، ويلزمنا أن نسيح فيها ، ولا سيما في قرية - كقريتي - مرفهة موشاة عبقة تتضوع بالخير والألوان والصمت ، شريحة من الجنة ، مطمح عين المستمتع ومرفأ قلبه .

ولولا أني لا أثق في كثير من الروايات التي تسللت إلينا عبر الأحقاب الزمنية الطويلة . . . لصحبتك داخل قريتي بيتاً بيتاً وشاليهاً شاليهاً ، فقد حكى أن أميرها - أو حاكمها - أو عمدتها - أو شريفها - كان يحتسي على الريق كوباً معصوراً فيه أربعة أو خمسة من الخراف البلدية ، وكان يحتفظ في بيت الظهيرة بثماني عشرة أنثى وفي بيت المساء بست وثلاثين ، وقبل أن يلغى جيش القرية كان الأمير يحضر مناورات الخفراء من خيمة مزخرفة بالبنات ويقال إنه لم يكن يجد فرصة لأن يضع قدميه على الأرض ، وكان يتبلغ قبل النوم بمسحوق الحشيش والسكر ، وكان عادلاً نزيهاً يحب الحق والخير والجمال ويعطف على الفقراء . . . . ومما يروى أيضاً أن مولعاً بالغريرات استقطعه الأمير أرضاً فسورها وأعشبها وأشجرها ثم جهزها بجحور وأكمات ، وأطلق فيها الكثير من البنات حيث كانت المتعة تصل الى ذروتها في هذا الجو الوحشي الشبق ، وحاول كاتب أو اثنان أن يرصدا ذلك الواقع المنتشي لكن الرقيب على أوراق

البردى أشار بأن يبدأوا كتاباتهم بملاحظة أن هذه الوقائع حدثت في العهود الماضية قبل أن يشل لسان القرية ، فلما رفض الكتاب ذلك أمر بطردهم ليموتوا في المنفى .

وكانت حفلات القرية الضاجة الصاخبة المزمرة الخرساء تنتهي قبل الفجر ليتسنى للرواد إنهاء رغباتهم المتفق عليها قبل ظهر اليوم التالي ، وبلغ حد الشبع الصامت في قريتي أن فقدت الكلاب كلوبتها وتحولت إلى مجرد حيوانات هاشة متثائبة تخطو فوقها الثعالب وأحياناً تداعبها ، وكان يحلو للرواد والضيوف أن يختطفوا البنات من الشوارع ، مرحين أو جادين أو محاولين كسر حدة الملل ، إن ذلك يحقق لهم ـ على أية حال ـ نوعاً من المتعة ، وعند اقتيادهم لمخفر الأمير كان رجال الأمير يقدمون الاعتذارات والهدايا للمتهمين وينذرون الخرساوات الجميلات بعدم إحداث شغب مستقبلاً ، ومن الحوادث النبيلة التي أسر بها لنا التاريخ أن رجلاً قتل زوجته لإنجابها خمسة ذكور دون إناث ، وقيل إن الرجل وأد الأولاد في حقل خشخاش ، وعند محاكمته على سلوكه تعلل بخوفه من خراب البيت مستقبلاً ، وقد قبل الحاكم تعليله ومنح تعويضاً .

(المقطع السابع والأخير)

وفجأة يتوقف المؤرخون والرواة وناقلو الأخبار ، يتوقفون والبلد في قمة عزها ، كل تطويرها وازدهارها وما قدمته لحركة الإنسان ينقطع ولا نلمح له أثراً في أوراق أو ألسنة أو عقول .

هل ضاعت القرية المضيئة الجزلة في مسارات الزمن الشرس ؟ وكيف ضاعت ؟ .

وقبل أن نتعرض لشتى النهايات ـ المفترضة ـ التي حاقت بقريتي ، نتوقف قليلاً عند حادث وجد مهملاً وسط آلاف من الشوائب والأكاذيب .

فقد روى أن رجلاً عتي السحنة تسلل إلى القرية وظل زمناً يجوس في شوارعها وأزقتها وطرقاتها وجنباتها وشاليهاتها ، ولم يدهش القرية في الرجل الغريب إلا انصرافه المطلق عن مباهجها ومراقصها وملذاتها .

ولم يستمر اندهاشها طويلاً ، فقد رأته يقيس عتبات بيوت ، ويحفر تحت بعض الجدران ، وظلت القرية ناظرة للغريب بنصف عين حتى تشكى بعض الرواد من اعتراضه طريق لهوهم .

واضطرت القرية أن تنذره تمهيداً لإبعاده ، لكن الرجل اختفى . ثم نمى إلى علم حاكمها أن الرجل قادم من جبال أطلس ، وأنه موفد من جنها لفك (الرصد) وحل (العمل) تمهيداً لإطلاق سراح لسان البلد .

واستطاع البصاصون تحديد مكان الغريب القادم من جبال أطلس ، وانتشر خبر في القرية أن الغريب قد استحوذ على بعض أطفالها وأنه يربيهم وسط دغل بين المقابر .

وكمنت البلد للرجل وفاجأته بحصار وجذبته من وكره ، وضبطت لديه طفلين . . . واعترف الرجل بكلام أخرق مؤداه أنه أخذ على عاتقه

تعليم الطفلين الكلام . . . الكلام . . . ؟ .

وترددت أخبار أن الحصار وصل إلى مداه ، وأن الساحر القادم من جبال الجن قد انتهك وتمزق أسفل الأحذية الذهبية ، وتمزق الطفلان أيضاً . . .

وأن الجن ـ بعد ذلك ـ قامت بمهاجمة البلدة فدكتها وجعلت من عاليها واطيها .

وقيل إن ذلك لم يحدث ، وإن ريحاً صرصراً عاتية قد هاجمت البلد في الحماسين فمزقتها ومحتها .

وقيل إن قوماً حمقى حانقين هاجموا البلدة وأبادوها .

وقيل إن نوعاً من النمل قد تكاثر في أقبية البيوت ثم فاض في الشوارع والطرقات والأجساد والمأكولات فافترسها .

وقيل . . . وقيل . . . .

لكن المؤكد أن القرية اختفت أو اندثرت ، وأن حيز الأرض الذي كانت تشغله ما زال حتى اليوم . . . مجرد بقعة رطبة سوداء مقفرة تئز فيها الزنابير وتعشعش فيها الحشرات وتخلو تماماً من كل نبات .

وعندما تسير فوق أديمها يمكن لك ـ إذا أنصت ـ أن تسمع أصواتاً تحت الأرض تموء وتنقنق .

وأثناء احتسائنا لبعض المشروبات الذهبية في شاليه خلف الهرم نبهنا مؤرخ معاصر بأن القرية ما زالت فوق الأرض أيضاً . . . لكنه عجز عن تحديد موقعها ، فقد كان في حالة سكر بين .

عباد الشمس

أصبح متعذراً الآن أن أروي شيئاً على لسان أمي ، فقد استكانت تهوم في بلادة بجوار فرن مهجور ، وتبتسم في طيبة لجيوش النمل الزاحفة حول جسدها الحنون المسترخي . كما أن أبي وجد محشوراً ـ في الشتاء قبل الماضي ـ بين ردفي امرأة بدينة انحشرت بدورها بين قالبي طوب . ولم يعد مناسباً أن أستعين بألسنة الآخرين في قص حكايتي ، لا لأن الألسنة قطعت « كما يشيع الموتورون » ، بل لأن هذه الألسنة استغرقها النوم الدافىء الحكيم . وعلى ذلك فقد قدر لي أن أجاهد كي أروي حكايتي معتمداً على جهودي ، جهودي وحدي ، ألم يحن الوقت لتعاونني ـ يا صديقي ـ كي أستطيع الوصول إلى فراشي ؟؟

ـ ١ ـ

حتى الملك أقسم مراراً لوزرائه ومستشاريه أن علاقة عباد الشمس بقريتنا قديمة وراسخة ، وأقدم من تلك الأحقاب التي كان لون الطماطم فيها بنفسجياً ضارباً للزرقة والأسبوع ثلاثة عشر يوماً والكون يضاء بخمسة أقمار والجهات الأربع الأصلية اثنتين فقط ، ومن المرجح أن عباد الشمس عرف الطريق إلى قريتنا فور واقعة فتك سيدنا الخضر بيتيم وقطة وتدمير سفينة ـ أو شيء من هذا القبيل ـ بحثاً عن الحكمة ، وإن

كان ذلك ـ في الحقيقة ـ يكاد يفجرني انزعاجاً كلما راعني أن الله أولى اهتمامه الجليل للإبل والنخيل والأعناب والولدان والأغنام ولوط والحوريات والحكام والكلاب والنجوم والإفك والنحل واليمن والنمل والسمك والنساء والبقرة والذئاب والكهف والنار والتبرج والثعابين والسموم والقتلة والأنبياء وابن السبيل واللصوص وذي القرنين والتين واللبن والزيتون والعنكبوت والعدل ، مهملاً ـ وعن عمد ـ عباد الشمس : هذه الزهور القوية العريضة الصفراء ذات الأوراق الخضراء الوارفة الصادقة ، المتجهة شرقاً تستقبل الشمس ، المدبرة غرباً تودع الشمس المنحنية فوق النور تتنسم الفتنة والجمال والرواء والسمو .

ـ ٢ ـ

دون اهتمام بجعجعة الملوك والخلصاء فإننا نؤكد أن بذور عباد الشمس ظهرت في قريتنا في أعقاب اغتيال عبد كافر والتمثيل بجثته لنجاحه في علاج امرأة ثرية من الجرب ، فقد عثر على البذور في نفايات كوخه مختلطة بالخلنجان والشعير وعنب الذئب والدم المتخثر ، وحاول أذكياء للمنطقة والمطلعون على الغيب أن يعيدوا تركيب ـ أو حتى يخترعوا ـ شيأً مما اشتهر به العبد الكافر ؛ إلا أن ما وصلوا إليه أدى إلى إصابة امرأة بورم وإحداث نزيف لناقة وبتر ضلعين لصبية لم يكن قد مضى على زفافها سنتان ، فارتعبت القرية وهلعت ، وبات من المؤكد أن تهديداً قد أصاب علاقتها بالسماء فاضطرت السماء ـ إثباتاً لحسن نواياها ـ أن توعز للأب عبد القدوس ـ ذلك القادر على إحداث شجار

بين الأحجار بمجرد أن يأمرها ـ بالرحيل إلى القريـة ، .حيث حط على جناحها الأيمن أثر الموقعة التي اجتاح فيها ناس بحرى البلد ناس قبلى البلد بسبب النزاع على تقسيم مياه الجدول .

- ٣ -

ازدهر عصر بذور عباد الشمس في عهد الأب عبد القدوس ، غلى البذور ـ مع الشيح الأصفر ومنقوع أظلاف الحمير وعالج البواسير ودود البطن ، سحق البذور ـ بذور عباد الشمس ـ مع حبة البركة وخلاصة زيت الخروع وعرض المسحوق لثمانيـة أيام مشمسـة من شهر بؤونـة ليحصل على إكسير فك رباط العرسان ، حمص البذور المرطبة ببخـار زيت الزاج وعالجها برماد الشعر المحروق ليصل إلى مـزيج اكتشـاف لصوص البهائم ، قلى البذور في السمن البلدي وجففها في ضوء القمر وأضاف إليها زيت السمسم ودهن بالمستخرج الأثداء الضامرة والسرة المنفوخة والعيون الرامدة ، صحن الحلبة مع نخاع الجراد وأضاف إليها بذور عباد الشمس وكمرها في تراب الفرن ليحصل على سفوف يمكن به علاج الاستسقاء والحسد والغيرة ووقف النزيف ، وأضاف للسفـوف مسحوق جمار النخيل والقرظ وسم الثعبان لينجح في معالجة موت الذرية وتساقط الأسنان والشعور بالوحدة ، كما استطاع الأب عبد القدوس ـ وقبل أن تتواطأ ضده شيطانة عشقها فأشعلت في وكره النار ـ أن يصنع من بذور عباد الشمس اللبية ذات الخطوط السمراء ـ علاجات للبهاق والدورة الشهرية والشلل الرعاش والحد من سلطة الشياطين والتبول في

الفراش والفتاق والتئام الجراح وإفساد مكائد الأعداء والهرش واللواط وتساقط الأطراف والنحافة وإطالة الجماع والقراع .

- ٤ -

لكن بذور عباد الشمس ـ بعد الأب عبد القدوس ـ لم تجد قلباً عطوفاً وإن وجدت أيد عابثة ، تناولتها رغبات الجهال وفاقدي العلم لتواجه ـ هذه البذور ـ عصوراً من الانحطاط والفوضى ، وانتشرت بين ربوع القرية صوامع أناس لا حظ لهم من الصبر أو العلم يحاولون تحقيق نجاح أو علاج ـ حتى ـ شعر متساقط ـ أو إنشاء علاقة مع شيطان واحـد ، فاضطرت هذه البذور السمراء المسالمة أن تتسلل من بين ظلام الجهل إلى الحقول ، وكان أول من استزرعها على حدود حقل قمح رجل من قبلى البلد اشتهر عنه اقتناء الزوجات والصوم وأداء الصلاة والزكاة وإتيان المنكر بين الحين والحين ، وظهرت نباتات عباد الشمس الطويلة الوارفة ذات الزهور الرحبة الصفراء والمركز الأحمر القاني ، تقف على حـدود القمح والفول لتتلقى هجمات السوائم العابرة ونهشات الحمير المارة على الطرق ، فاستكثر منها الفلاحون واستخدموها في هذه المهمة الخطيرة ، إذ كثيراً ما عانوا من ضعف نمو محاصيلهم على رؤوس الأرض التي تمرّ فوقها الطرق أو قنوات الري ، كانوا ـ قبلاً ـ يستعينون بنبات الباذنجان أو الساسابان أو الحراز كي يحموا رؤوس حقولهم من امتداد الأيدي أو الأفواه لمزروعاتهم ، فما كاد عباد الشمس يظهر حتى تهافتوا عليه ، لنموه ـ أولاً ـ سريعاً ، ولسهولة إزالته ـ ثانياً ، ولجمال منظره ثالثـاً ـ ولعدم

إفساده التربة ـ رابعاً ، حتى جاء وقت على قريتي كانت محاصيلها تقف في الحقول رائعة رائقة جميلة محددة بهذه النباتات الشامخة السامية الأليفة . لكن قريتي ـ وحتى تلك الفترة ـ لم تكن قد اكتشفت الكنز الذهبي الذي تخفيه هذه النباتات ـ في بذورها .

ـ ٥ ـ

وكان أول من تنبه لما تحويه بذور عباد الشمس من كنوز رجل وهب نفسه لله فانضم إلى فريق الذكر الذي أنشأه الشيخ محمد الصباغ إذ كان فريق الذكر ينهى عن الفحشاء واحتساء البوظة ومحاربة تدخين المعسل والتمباك واستحلاب الدخان غير أنهم كانوا يعانون من توقف الأفواه أثناء تلقي العهود والمواعظ ، وجلهم ممن هجر الكيف دون بديل وقد استطاع هذا الرجل الذي وهب نفسه لله وانضم إلى فريقهم أن يستبين في بذور عباد الشمس اللبية السمراء ذات الخطوط البيضاء لذة فائقة ـ وحلالاً ـ أثناء قزقزتها ، طعمها خفيف هين غير ذي خطر أو صعوبة ، ومن بين يديه تناولتها أيدي الذكارة والمنشدين والمنهمكين في إعلاء شأن الدين ، وكلما انتشرت البذور بين الأيدي تحرك نبات عباد الشمس من حدود الحقول إلى أحواض الحقول ثم في ريشات الحقول ، ثم قام فلاح مغامر بزراعة ثلاثة قراريط مرة واحدة فأغرق القرية في طوفان من اللب لوى الأعناق إلى عباد الشمس وانفتحت العيون ترصداً وانبهاراً .

ـ ٦ ـ

وظلت نباتات عباد الشمس ـ رغم ذلك ـ تقف على حدود الحقول أو

تخترق ـ أحياناً ـ بعض ريشاتها ، فقريتي تكره ـ حقاً ـ هـذا النوع من النباتات « الدنيئة » التي لا يمكن مقارنتها بـالذرة والقمـح والسمسم والفـول والبرسيم نجـاهـد الليـل والنهـار كي لا تمـر ريـة دون سقي محاصيلها ، يسقط القتلى وتقوم العداوات لأن مياه حقل جار انسابت في وقت غير ملائم إلى حقل جار آخر ، تتحدد مهور العرائس ليس فقط فيما كم ستدفع من أموال بل وفيما كم ستهدي من أرادب القمح ، تتحدد المناصب ودرجات الأشراف وذوي الحيثيات بما قد تخزنه من محاصيل ، تتحدد المهد والكمد والأسى بما قد يلحق حقه من تهاو أو إنهيار أو فشل في تحقيق الحد الأعلى للمحاصيل .

لكن الرجل الذي تجرأ واستزرع قراريط عباد شمس عاد فاستزرع سبعة ، وفي خلال تسعين يوماً امتلك محصولاً من اللب حمله في جوال واحد على ظهر جحشته وباعه في أقرب مدينة بجنيهات ورقية ، وبدأت القرية تهرش رأسها محاولة أن تنظر للأمر كما تعودت أن تنظر إلى ثروات مهربي الحشيش وتجار جلود البهائم ، باحتقار ـ ربما ، أو بإستهانة ، أو باستهزاء ، غير أن أمر زراعة عباد الشمس كان له شـأن آخر ، فقـد اكتشفت قريتي أن عباد الشمس نبات مسالم قوي طيب، لا يعبأ بانتظام الـري أو استمرار العـطش ، لا يهتم بتنقية الأرض من الحشـائش أو الدود ، لا يقيم وزناً للعصافير والفيران ، تمنحه السماد والسباخ فينمو وتحول بينه وبين السماد والسباخ فينمو أيضاً ، نبات مختلف عن القمح أو القطن أو الفول هذه المحاصيل الكريمة ذات الشرف التي يؤذيها وطأة القدم العابرة أو هبوب الريح أو انكماش فترة الري أو تأخر تغذيتهـا

بالسماد أو ظهور صقيع مبكر أو ارتفاع حرارة غير مناسبة ، فإذا أضفت إلى ذلك ـ كما أضافت قريتي ـ الجهود المبذولة في الحصول على السماد ثم الحرث والعزق والإشراف الدقيق على الري ، لما راعك أبداً أن تصبح السنة قراريط ثلاثة فدادين ، وأن يقفز نبات عباد الشمس عن فوق الحدود إلى داخل أعماق الحقول إلى مساحات واسعة من الحقول ، تبذر شتاء أو صيفاً أو خريفاً ؛ تنمو مروية أو عطشى أو مسمدة أو بدون سماد ؛ تزهر جميلة تستقبل الشمس في الصباح تنحني غرباً ولاء لقرص الشمس غروباً ، لا تهتم بالريح أو الوحل أو الغربان أو الثعالب أو العصافير أو السوائم ، تتحول ـ وبسرعة ـ إلى بذور تحمل للمدن المجاورة ، ويعود زارعوها منتفخي الأوداج يحملون اللحوم والعيش المصري والبرتقال والشيت والطرح والمناديل ، ثم : نقوداً في جيوبهم ومحافظهم وتحت وسائدهم ، لا يشاركون في صراع على ري أو انحراف مياه أو تأخر تسليم سماد .

ـ ٧ ـ

وتركت قريتي الأمر للمخاطرين من مزارعيها فترة تحبذ العمل والجهد وما ينتظر المؤمن من مثوبة لأنه يتعب ويزرع ويرعى ، غير أن عباد الشمس لم يكن يعبأ بهذا الجبن الملفوف في المثوبة والخبز ، اجتاح زمام القرية ومساحاتها قفز من حقل إلى حقل فوق الترع والمصارف والتلال ، يوعز للآخرين بزهوره الصفراء الواثقة المرتاحة بالنظر إليه ، ويومىء للشمس أن تغرب فتغرب ، ويتحول في هدوء إلى جنيهات تشتري

القمح والفول واللحوم والنساء والعسل وأداء الحج ، ويتحول في هدوء إلى جلابيب من الصوف وصداريات من الجوخ ، لا يقلقك ولا يرهقك ولا يجعلك طوال الدهر ذاهباً آيباً ساهراً متنبهاً مراعياً حق البذر والصراف والحكومة ، يحول بينك وبين هذا الصراع الدموي المدمر الذي تمليه ضرورة الحفاظ على الشرف والمحصول والماء والسماد .

- ٨ -

وبدأت محاصيل القمح والفول والبرسيم والقطن والسمسم والذرة والبصل والثوم تتراجع من الحقول ، تزحف للخلف ، تنزوي وسط عباد الشمس الذهبي الآسر الواقف في الحقول نضراً حاتمياً كريماً ، والرجال يشملهم الحب والتعاطف والقدرة والكرم والرخاء والإخاء ، والنساء تشملهن الحناء والعطور والنظافة ؛ وأصبح سهلاً أن يلقى الرجل - في أي وقت - ببذور عباد الشمس في حقله ؛ ثم يطلب من جاره - إن رآه - أو مر عليه - أن يرويها ، ثم يظل يتقلب في الرخاء حتى يمر عليه جاره - إن رآه - أن يذهب فيحصد محصوله ؛ حتى جاء وقت أصبح من السهل أن يقوم رجل واحد في مساحة واسعة بالبذر والري ، بل والاتفاق مع تجار المدن على التسويق دون انتظار لرأي جاره أو جيرانه ؛ فالنعمة والحمد لله وافرة وتجب الطمع من النفوس .

غير أن عباد الشمس كان يحب الإخلاص ولا يميل إلى المراوغة ، فإذا كانت المحاصيل المجهدة قد انهزمت متراجعة إلى الزوايا المهملة من الحقول ، فإن البيوت لا تزال تحتوي بهائم وحميراً وجمالاً تحتاج إلى

أعـلاف وخضرة وتنـظيف ورفع روث وإرواء وقص شعـر وتشـذيب أظلاف ، وليس من العدل أن تنفتح بصيرة الناس على عباد الشمس وتنغلق على هذه البهائم ذات الروائح الكريهة والمحتاجة دائماً إلى رعاية ويقظة ، وليس الجمل أعز من القمح ولا البقرة أعز من الفول ولا الحمار أعز من البرسيم ، فلنحل المسألة حلاً وسطاً ، فلتأكل البهائم عروش عباد الشمس وزهوره ، لكن البهائم المتغطرسة الغبية حملت مصيرها في أفواهها ورفضت أن تأكل سيقان عباد الشمس ، طالبة أن تجلب لها أغذيتها من المناطق الأخرى : الفول والبرسيم والشعير ، كما تجلب كل مواد البيوت من رغفان ولحوم وطعمية وزيوت ، وأبى الناس أن يقعوا أسـرى للحيوانـات بعـد أن أبـوا أن يقعـوا أسـرى للبقـول والقـطن والحبوب .

- ٩ -

أصبح واجباً علينا ألا نتعاطف مع الإبل ، وأن نوافق على الموقف العام الذي سلكه شعبي إزاءها ، هرب جمل فلم يعبأ أحد بإعادته ، ونفق بغل وجحشان ، وتناطحت جاموستان حتى تهالكتا صريعتين لتثيرا في القرية المرح ، والقرية السعيدة ترفل في القـطيفة والشجـر والزبـد والعسل والعطور والنقود ، أيام المرارة والإجهاد مضت دون رجعة ، والجلسة الممتعة على المصاطب وفي ردهات البيوت وبين يدي النساء وفي ظلال الشجر وبين طيات المال تقرب المتعة وتكمل النكد وتقتل الحسد وتشل الغيرة ، وتصنع من البوم واحة وارفة ممتدة على مـدى القيظ أو

البرد ، فلتذهب الحيوانات إلى حيث يكرمها الله فلا وقت لنا للأعلاف والروث والتنظيف والروائح الكريهة ، وانتشر في القـرية أبنـاء القرى المجاورة يبيعونها اللبن والرائب والرغفـان والطعميـة واللحوم والـزبد وانتشر في القرية أبناء القرى الأخرى يجمعون الأبقار والحمير والأرانب والماعز ، وحقول عباد الشمس تتسع وتتسع وتحاصر النخيل وأشجـار السنط والجميز والنبق والتوت ، وكلما اتسعت أفرزت في الجيوب المال والمتعة والراحة والنعيم ، ومضى الوقت الذي كان يسهد فيه الرجل ـ لا من أجل حقل قد لا يروى أو محصول قد ينهب ـ بل من أجل أردب قمح في صومعته ، ولم يعد ثمة مبرر واحد لهذا التهالك المخزي الذي دمر عدداً من أبناء قريتي حيثما أدمنوا حمل السلاح ، نفضوا عن أكتافهم هذه البنادق وراعوا ألا تؤذى أكتافهم مثل هذه المهام ، نظيفون سـاطعون بلغاء طيبون مغتنون أبناء قريتي ، وعباد الشمس يبذر وينمو ويترعرع ويزهر ، ويجف ويتحول إلى نهر من السعادة والارتياح والاغتناء .

ـ ١٠ ـ

أصبح من المؤكد أننا لا نملك إلا الإعجاب والتقدير . لهذا النبات العظيم ، الذي ـ ودون وصاية أو وصية ـ لم يفتأ أن تسرطنت غابـاته فغزت الطرق وبطون الترع وأكتاف الأنهار ، ثم لم يلبث أن انسل إلى حوائط القرية وجدران معابدها ومراحيضها وأفرانها ، نما كما ينمو الخير في كيان الرجل المؤمن ، وفي كل بقعة يصل إليها تسترخي القرية أكثر وأكثر ، وتمد سيقانها وتضطجع على حوائطها وتغوص في وثير فراشها ،

تؤدي أحياناً الصلاة ـ فريضة فريضة ثم تجمع الصلوات كلها في فريضة واحدة ، تنام متى أرادت وتستيقظ متى أرادت تاركة علاقة انتظار الشمس وتوديعها لنباتها الجميل ، غير مهتمة ـ في البداية ـ بهذا الحقد الفردي الذي أدى بواحد من القرى المجاورة ـ الفقيرة ـ أن يتسلق حوائط أحد أبنائها بحثاً عن الثروة ، ثم غير مهتمة بهذا النوع من السلوك الناشز الذي قاد فرداً مجهولاً لاغتصاب صبية مسترخية أمام منزل أخيها ، ثم غير مهتمة بهؤلاء الأجلاف الكامنين وسط حقول عباد الشمس يحاولون انتزاع الخير من العابرين فلما وجدت أن الأمر وصل إلى حد مرور اللصوص على أهل القرية الجالسين في الشوارع يتحدثون أو يأكلون أو يشربون أو يتنفسون ، عقدوا مجلسهم الموقر واتخذوا فيه قراراتهم ، والتي دار أهمها حول دفع غائلة الحاقدين عنهم ، فأنابوا عنهم أحد صفوة الفاهمين لعلاج الأمر ، حيث تمكن من إحراز اتفاق ـ بعد مباحثات دارت طوال سبعين يوماً ـ مع الأوغاد على أن يكلوا إليهم ـ إلى الأوغاد والسوقة ـ حراسة قريتهم ، وزغردت القرية ليلتها ، لكن زغاريدها ـ والحق يقال ـ لم تكن ناصعة عميقة ، بل مجرد دفعات صوتية من أفواه مملوءة بالسمنة .

ـ ١١ ـ

أصبح مزعجاً الآن ما يتردد من أن قريتي تستعين بالأعراب ـ لا في الحراسة فقط ـ بل وفي تنظيف الدور وكسح النفايات ، وهي أكاذيب لا بد من التنبه لها ، إذ أن قريتي أباحت لبعض المحتاجين من أبناء القرى

المجاورة أن يساعدوا في قضاء مهامها مقابل أجر ، وقد وافقت السماء على هذا الإجراء في الخطبة العصماء التي ألقاها شريفها ظهر يوم جمعة أثناء الرد على ما أثير من أن بعض المواطنين تركوا للغرباء مهام أخرى أكثر حساسية تتعلق بالنساء ، وقد تظلمت نساء قريتي من تلك المحاولة العابثة التي تشدق بها شاب أو شابان - عرف عنهما غرامهما بالفول والقمح - والتي قصد بها إبعاد الأغراب الطيبين عن قريتنا ، ذلك لأن هذين الشابين - بالذات - لا يؤديان الصلاة ، ولم تدخل قلبيهما الرحمة من أثار علاقة قديمة لهما بمخرب طردته القرية لقيامه بإشعال نيران فرن قاصداً أن يجرب فيه عملية الخبز ، مذكياً روح التخلف بين المواطنين .

الفرسان يعشقون العطور

إرتعش النهار فأسقط أعشاش العصافير في أتون النـار . وثب الحزن يساراً وأهال التراب فوق جثث الأطفال . ضجت المدن من الضحك والترانيم والبلاهة والمسرة . إنهارت أفران القرى فوق الطواجن والخبز المقمر .

قالت امرأة تحب الكلاب وتقتني الثعالب :

إياكم وهذا الوجه الأسود الفج ـ فإنه يورث العقم وينشر السفاح ويجادل في الحق ويدمر شرانق الحرير ويتاجر في جلود العذارى ويجلب الكمد ويتشهى بالنكد .

***

ارتعش النهار فأسقط أعشاش العصافير في أتون النار ، ظلت الغربان تضحك حتى ابيضت قوادمها ومناقيرها وأطـراف أجنحتها ، تشققت بطون الترع فتعملقت الحلفاء والداتـورة والسحالى ، تـراقص النمل حول ضروع الأبقار ، استل الفارس حسامـه وامتطى أدهمـه ، تحلق أطفـال الفقـراء حـولـه فمنحهم الابتسـامـات والإصــرار والسلوان والحلوى ، اخترق الفارس الجموع والشوارع والأحزان حتى أدرك قصر فاتنة الزمان ، كان الجو ربيعاً والحزن دافئاً والكمد متوقداً . . . أيتها

الفاتنة الشريرة الحمقاء المتربعة على عرش القرية . . . إني قادم إليك لأقتصّ من امتصاصك الدموي لأرزاق الفقراء ، هاجمت الجماهير غضباً فتشبثت الأشجار ببقايا الخضرة وتصارعت مياه النهر مع شقوق الجفاف ، تلاصق الحراس بأسوار القصر مستعدين للدفاع عن الفاتنة ، أطلت الفاتنة الجميلة من مقصورتها فانفجر الناس غيظاً وأحجاراً وصراخاً وطوباً ، لكن الفاتنة وقفت راسخة ، ازدادت الجموع تماسكاً وتضامناً حول الفارس ، ظلت ابتسامة الفاتنة تتسع حتى شملت الخراف والسواقي والأطفال والأفران والجماهير والأناشيد والمواويل ، تقدم الفارس خطوته الأخيرة مصمماً على إنهاء حساب السنوات المريرة ، تحركت الجماهير خلف الفارس حاملين أطفالهم فوق أكتافهم ، أشاحت الفاتنة بذراعها ، توقفت الحشود ، ازداد الحراس تكاتفاً واستعداداً للفتك بالجماهير ، صرخت الفاتنة بصوتها الغاضب الحنون . أعرف مطالبكم لكني أحذركم من الدم ، ما ذنب الحراس والجماهير أن يتقاتلوا ، . . . . إني مستعدة للتباحث في الأمر .

* * *

تقدم الفارس ، وفي الظهيرة بدأ التباحث ، وفي المساء أعلن الزواج ، فانتشت الجماهير مرحاً واغتباطاً وفرحاً وابتهاجاً ، وفي اليوم الرابع خرجت الفاتنة من قصرها ساحبة خلفها جسد الفارس العتيد المضمخ بالعطور ، ظلت تجره في الشوارع حتى سويقة القرية ، ووسط الميدان فرشت جسد الفارس المضمخ بالعطور وقطعت رأسه .

* * *

وثب الحزن يساراً وأهال التراب فوق جثث الأطفال ، ضجت المدن من الضحك والترانيم والبلاهة والمسرة ، زحف السنط مغتالاً ثمار التوت ، انطفأت الكوانين وتسلقت الكلاب الأسرة والفراش والمقاعد ، استرخت الثعابين في جحور الأرانب ، طنت الزنابير حول الأزيار ، التف الفقراء حول الرواة والقصاصين ومرتلي الأوردة وصانعي التمائم ، عجت البطون بالديدان ، استل أخو الفارس حسامه وامتطى أدهمه ، تحلق أطفال الفقراء حوله فمنحهم الابتسامات والإصرار والسلوان والحلوى ، اخترق الفارس الجموع والشوارع والأحزان حتى أدرك قصر فاتنة الزمان ، كان الجو ربيعاً والحزن دافئاً والكمد متوقداً . . . أيتها الفاتنة الشريرة الحمقاء المتربعة على عرش القرية . . . إني قادم إليك لأقتص . . . وأشاحت الفاتنة بذراعها ، وفي الظهيرة بدأ التباحث وفي المساء أعلن الزواج فانتشت الجماهير مرحاً واغتباطاً وفرحاً وابتهاجاً ، وفي اليوم الرابع خرجت الفاتنة من قصرها ساحبة خلفها جسد الفارس العتيد المضمخ بالعطور ، ظلت تجره في الشوارع حتى سويقة القرية ، ووسط الميدان فرشت جسد الفارس المضمخ بالعطور وقطعت رأسه .

* * *

إنهارت الأفران فوق الطواجن والخبز المقمر ، انغلقت الأفواه وانفتحت وبدأ لعابها يسيل ، التوى العقل يميناً ويساراً ثم انكفأ داخل جمجمة ، باضت الخراف وجفت الأمعاء ونما الورد كرنباً ، انحشر الحب ركاماً في أنابيب المبايض ، داعب الهالوك الفول الهزيل بأبيات من أشعار

الحكمـة ، أوعز مـلاك للرب أن يوقف المهـزلة ، استـل ابن الفارس حسامه وامتطى أدهمه ، تحلق أطفال الفقراء حوله فمنحهم الابتسامات والإصـرار والسلوان والحلوى ، اخترق الفـارس الجمـوع والشـوارع والأحزان حتى أدرك قصر فاتنة الزمان ، كان الجو ربيعاً والحزن دافئاً والكمد متوقداً . . . أيتها الفاتنة الشريرة الحمقاء المتربعة على عـرش القرية . . . إني قادم إليك لأقتص ، وأشاحت الفاتنة بذراعها ، وفي الظهيرة بدأ التباحث وفي المساء أعلن الزواج فانتشت الجماهير مرحـاً واغتباطاً وفرحاً وابتهاجاً ، وفي اليوم الرابع خرجت الفاتنة من قصرها ساحبة خلفها جسد الفارس العتيد المضمخ بالعـطور ، ظلت تجره في الشوارع حتى سويقة القريـة ؛ ووسط الميدان فـرشت جسد الفـارس المضمخ بالعطور وقطعت رأسه .

* * *

ترهلت السحب وكلحت وتشكت من انعدام المياه ، تلوت السراديب خراباً وامتدت في أعماق الشـرايين ، ظلت المـرأة التي تحب الكلاب وتقتني الثعالب تعالج المواعظ بالملائكة ، استل حفيد الفارس حسامه وامتطى أدهمه ، وفي الظهيرة بدأ التباحث .

امرأة

بعد سطور قليلة من الآن سوف يقع حادث شنيع : فسوف نطلق المشبوه (ع) ليتسلق حوائط منزل السيدة (ن) فيقتحم فراشها ويخنقها بذراعيه القويتين ويتركها جثة هامدة ينسكب الدم من أنفها وفمها ويغرق الدنيا .

ومن الناحية الأولية فإن السيدة (ن) جميلة ، وتعاني من رغبة واضحة في الاسترخاء ، وروى عنها أحد الصبية حكاية غامضة مخجلة ، أكدتها فيما بعد جثة تاجر أقمشة متجول ؛ كما سبق لأحد سائقي سيارات النقل أن طعنها بخنجر في كتفها اليسرى بعد رحيل زوجها بأيام ، ثم تردد في الآونة الأخيرة أن دجالاً سلبها ملء الكفين ذهباً ، بعدها انهمرت الروايات عن السيدة (ن) حتى أحسسنا أن كل واحد لا بد وله معها حكاية .

وأن أي واحد من الممكن أن تكون له معها حكاية .

- ١ -

كان الشتاء قارساً ، وغرف بيوتنا الضيقة الواطئة تفح بالرعشة والبرد وعندما يغلي الشاي على « الراكية » بجمراتها الحمراء اللاهبة تصل

حكاياتنا عن السيدة (ن) إلى عنفوانها ، وعندما يكتسح دخان (الراكية) عيوننا وأنوفنا وحلوقنا يصبح جسد ومال وبيت السيدة (ن) نهباً لحكاياتنا ، وتصل سعادتنا الباردة المرتعشة المدخنة إلى أوجها حينما يتفنن كل واحد منا في ترك جزء من الحكاية غارقاً في الغموض ، لنلتذ بالمجاهدة في الكشف عن تفاصيله .

. . . تومرجي المستشفى كان يوم السوق أمام منزل (ن) ، ماذا يفعل ؟ يتوقف الحاكي ويمسح أنفه ويهمس : يعلم الله ، يمسك آخر بذيل الحكاية ويصمم : إنه فعلاً رآها في المستشفى منذ سبعة عشر يوماً ماذا كانت تفعل ؟ يتوقف الراوي ويهمس : يعلم الله ، ويتضح لنا - حينئذٍ - أننا جميعاً التقينا بـ (ن) في السوق وفي طريق بحر يوسف وأمام المدرسة وفوق القناطر وعند حكيم الأسنان وفي مكتب صراف الحكومة وبجوار بيت شيخ البلد وداخل الطاحونة وفي محطة السكة الحديدية وعند البقال وفي ساحة جبانة الأموات ، ماذا كانت تفعل ؟- يعلم الله .

- ٢ -

كان « ضبع » المتخصص في عس وتوليد البهائم قد شمر عن ذراعيه مستدرجاً من بطن البقرة آخر النفايات الدموية ، حينما مال أعور على زوجة عمي المهمومة وهمس : هذه البلدة لا رجال فيها ! !

ونظرنا جميعاً إلى حيث يجب أن نستوثق من حكمة خلو بلدنا من الرجال: كانت (ن) تتهادى على نهاية الطريق ترتدي ملبسها الأسود

الدائم التماوج في تنسيمة الصبح عاكساً الأشعة، وعلى رأسها طرحة أبرزت وجهها الطري الجميل .

عشرون عيناً حاصرتها وهي تخطو فوق القناة ، حينئذٍ أصبح الوقت مناسباً لأن يخرج (ضبع) كفه الدموية من بطن البقرة ويهتف . . . هذه البلدة لا رجال فيها . . . وبسرعة تحول المؤتمر المنعقد حول البقرة المجهضة إلى توحد وأخوة لدفع ما اتهم به (ضبع) البلدة ، وفي صوت مفعم بالرجولة صرخ أعور : أنا أدفع خمسة جنيهات من حر مالي لتخليص البلد من . . . (وأشاح بوجهه نحو (ن) باحتقار) ورد عاطل : وأنا أدفع خمسة ، وصرخ فاضل : وأنا أدفع جنيهين ، ورتل فاجر في صوت قديم : وأنا أدفع ثمانية ، ودارت دوائر المساهمات حتى انغلقت على صوت (ضبع) : وأنا أتفق نيابة عنكم مع السيد (ع) ، فكادت زوجة عمي تزغرد معلنة أنها سوف تذبح نصف ما تملك من أرانب وتقيم مأدبة ملوخية في الشارع يوم يأتيها خبر السيدة (ن) .

- ٣ -

تماماً كما أن لكل قرية مبيض نحاس ، وناظر مدرسة ، وشيخ خفراء ، ولص ، ومطبل زار وفاتح مندل ، وتاجر شيح ، وإماماً وقسيساً ، وسمسار بهائم ، ومأذوناً ، وغازية ، وبيت مشبوه ، ومجبر كسور ، ونجار سواقي ، وداية (قابلة) وعمدة وسقاء وحلاقاً . فأيضاً لكل قرية قاتل مأجور يهتم بها وتهتم به . . !!

وكان العظيم (ع) أقوى واحد في ذلك العهد بعد أن تفاخرت به

قريتنا لعملياته الخمس الشهيرة : اغتال تاجراً من بحرى لحساب امرأة كفيفة ظلمها المقتول في ثمن كيلة حبوب ، وطعن بالحربة كاتب عزبة مجاورة لحساب كاتب العزبة السابق ، وقطع رقبة فارس تعود أن يمشي في الأرض مرحاً دون أن يقول للناس السلام عليكم ، وعلق صاحب فرن في واجهة باب الفرن من قدميه ولم يتجرأ أحد أن يفك وثاقه حتى مات ، ثم كانت العملية الخامسة والتي قتل فيها صياد السمك ووضعه مع عياله في قارب وأطلق القارب في مياه بحر يوسف مشتعلاً بالنار .

طبعاً (ضبع) هو الذي تفاهم مع السيد (ع) ، وعندما دخلا معاً شارعنا اهتززنا جميعاً ارتباكاً وانفعالاً وانزعاجاً ، كان السيد (ع) يسير هادئاً ، وفي يده عصا من الخيزران تتلوى حوله مضمخة بالمجد وقصف الرقاب ، وعندما غاب في آخر الشارع أحسسنا بأن الزهو والكبرياء تموران في نفوسنا ، وبمجرد خروجه من الشارع اجتاحتنا الإجابة العظيمة : هذه البلدة مليئة بالرجال ، فقال (ع) وهو يسير هادئاً : السلام عليكم .

- ٤ -

أيضاً فإننا نتوقع متى يمكن أن تحدث عمليات القتل في بلدنا : في الصبح أو الفجر أو بعد العشاء بقليل ، كما أننا قادرون على أن نتكلم عن أجر القاتل والطريقة التي سوف يسلكها في القضاء على ضحيته : السكين أو اشتعال النار ، السم أو الخنق باليدين ، حبل الليف أو الكتم بأغطية الفراش ، وانتهت افتراضاتنا خلال أسبوع مرهق بأن السيد (ع)

سـوف يقتل الملعـونـة (ن) خنقـاً بـاليـدين . . . وفجـر ليلة السـوق بالذات . . .

- ٥ -

في العصر ؛ ذلك الوقت الذي لا نميل أن نقتل أحداً فيه وشمس آخر النهار تتهادى صفراء واجمة باردة وأشعتها تمسح كآبة أعالي البيوت . . .

إنشرخ أفق القرية وانفتحت عيونها انزعاجاً فاصطك خيالها بمخلفات الخرائب . شق الكون صراخ رهيب ، وانفرجت نافذة السيدة (ن) في عنف ، وانقذف منها السيد (ع) يهوي في الشارع ساحباً خلفه الصرخة التالية الممطوطة الرهيبة .

وتجمع الناس حـول جثة السيـد (ع) المكومـة مهتزة تنتفض بـآخر الأنفاس .

لكن واحداً منا لم يستطع أن يرفع عيونه إلى نافذة السيدة (ن) فقد كانت تقف على سطح منزلها صامدة شامخة ـ وعارية تماماً ـ وكانت تنظر إلينا مبتسمة في احتقار .

حافة النهار

ارتبكت الشمس قليلاً فازدادت احمراراً ، وهبط ثعلب في المجرى فلما استأنس أمناً مد بوزه وسط الساسابان ولعق من المياه ، واشرأب رأس ضفدع فتوقف الثعلب عن الرشف وبدأ يتحفز للقنص ، ووضع (الحاج) طفله الوحيد أمامه فوق حمارته (المصبوغ ظهرها بالحناء من كثرة الجراح) ساحباً بقرته ووليدها خلفه ، وأطل نمس من بين عيدان القصب آملاً أن تهمد الحركة فيعبر الطريق ، وتقاربت غمامتان فامتزجتا وتدفق بطنهما بالحمرة ، واقتحمت السماء هوجة زرازير محدثة جلبة فأجفل العجل الصغير لكن البقرة ظلت تسير هادئة خلف حمارة الحاج (الذي كان يزن بموال ويقرص في رفق رقبة طفله مداعباً إياه ببعض الشتائم ليظل الولد مبسوطاً) وضرب (الحاج) الحمارة فوق رقبتها كي تتخطى قطعاً في أرض الطريق ، ووثبت الحمارة فتشبث (الحاج) ضاماً ابنه في عبه وكاد يسقط فعاد لضرب الحمارة مرة أخرى ولعن أبا الذي باعها له فانزعج النمس وارتد داخل القصب ، ومن الناحية الأخرى بص ذئب على (الحاج) وابنه والحمارة والبقرة والعجل ثم فتح عيناً وأغلق عيناً ورقد ، سأل (الحاج) طفله ؟ إرتجفت ؟ فبكى الولد ، أعاد السؤال مرة أخرى : إرتجفت فسكت الولد ، أقسم (الحاج) لطفله أنه سيطلع جباناً مثل أخواله وقرصه عدة مرات في أذنه ، ضحك

الطفل وضحك (الحاج) وجرى العجل الصغير بعيداً عن أمه ثم عاد إليها .

* * *

إزداد احمرار الشمس فاضطرت أن تنكس رأسها وراء الجبل ساحبة شالها الضوئي من حول رقبة النخيل ، وأوقدت عمتي نفيسة الفرن ليتكاثف الدخان ويحط الهباب فوق وش صحاف السمك المرصوصة على الأرض المكلل وجهها بالقوطة والزيت والبرغل ، شم الكلب الرائحة فتثاءب وتحرك فوق الحائط وقفز في الباحة ودنا من الصحاف متحسساً الأرض بأنفه ثم رقد ، وخرجت أرانب يامنة أم محمود من جحورها وانتشرت متوهجة العيون تتنسم الأعواد في التراب ، وجست الحاجة شفاء مؤخرات فراخها لتطمئن على البيض ونادت ابنتها وسبتها لتخاذلها في نقل الماء من الزير إلى الأباريق قبل أن يأتي الليل ، واستطاع محمود عبد الجابر أن يشد وثاق جمله أمام الباب بادئاً في تضميخه بالزيت الأسود كي يخفف عنه الجرب ، وسحب الشيخ حسني صديقه محمود حسنين من كم جلبابه جاذباً إياه وملحاً في اصطحابه للمسجد كي يؤديا صلاة المغرب ، فلما قاومه اتهمه الشيخ حسني بالكفر مستنزلاً فوق رأسه اللعنات وأنبأه محتداً بأنه حتماً سيدخل النار ، وتجمع نفر قليل حول حمار وحمارة أتيحت لهما فرصة التواصل ، ونصبت أم كامل عند الرجال الطبلية في مدخل الدار ورصت عليها صحن ملوخية وصحن قلقاس وطبقتين من العيش المقمر في تراب الفرن ونادت على محمود ـ زوجها ـ للعشاء فأقسم على رفاقه أن يقوموا معه ليشاركوه الزاد ، واتجه ثلاثة ـ أو

أربعـة ـ أطفال إلى بـائعة الجـاز ـ في آخر الشـارع ـ ممسكين بـأيديهم زجاجات وبيضاً أو أكواز ذرة ، وأغلقت زوجة أصيل شوال الملح طالبة من أحد العابرين أن ينقله من خارج الدار لداخل الدار رافضة أن تبيع الملح بالأجل متعللة بأن العتمة قادمة ، ودار علي حافظ حول بيت عبد المعطي دورتين رانيا للمدخـل في تثعلب متحاشيـاً أن يراه الآخـرون فيكدرون عليه رغبته ؛ وأغلق الشيخ موسى مصحفه ومسح بكفه على وجه ابن عدوي الراقد تحت الحرام الصوف مستنزلاً له الشفاء من السماء ومتسولاً له البركة من الملائكة ، وجذبت أم محمد عقدة حطب من خلف البيت ووضعتها أمام الكانون تمهيداً لتقمير العيش إيـذاناً بـالعشاء ، ووقفت صبية على عتبة بيت الشيخ محمود علي شناوي طالبة قطعة خميرة يضيفونها على العجين ، واستمر قصاص شعر الحمير منهمكاً في عمله وسط الميدان ، ونادى الشيخ ابراهيم على الشيخ غزلى طالباً منه النزول للذهاب معاً إلى مجلس صلح سيقام بحرى البلد ، ووضع ضبع أبـو سامي فص الأفيون أسفل لسانه وهرع إلى المقهى ليحتسي فنجان بن سادة ، وظل صلاح إبراهيم واقفاً أمام منزله (الذي باعه لمحمد عبد المنعم ويقيم فيه بالإيجار) مرتـدياً جلبـابه المكـوى النظيف مستمتعـاً باحترام العابرين له ، ووقفت بديعة أم صابر باكية منتحبة بـين يدي الشيخ غالب شاكية ابنها الوحيد (ذاك الذي يدخل إلى زوجته من باب آخر بعيداً عن طريق أمه وفي جيبه الحلاوة والطعمية)، وتحرك عبد اللاه من عتبة البيت وصعد السلم للرواق فوجد امرأته جالسة على الأرض عارية الساقين تغربل أذرة رفيعة فبدأ يحتك بها وعيناه تبرقان ، ووقفت

شفيقة على السطح لتنشر الملابس دون اهتمام بإقبال الليل ، وجلس صالح ياسين وأحمد عبد العزيز على الدكة ينهشان في عرض إحدى الأسر ويرتشفان الشاي . ومر الخواجة يني عائداً من الطاحون مضمخاً باللون الأبيض وقال للجالسين في الشوارع : السلام عليكم ، وشال محمد عبد التواب أحمد صغاره فوق رقبته وخرج بـه من البيت متوجهـاً للدكان ليشتري للطفل حلاوة .

* * *

إزداد اختنـاق الشمس فاسـود بطن الغمـامتين . ظـل الثعلب في المجرى مستأنساً الأمن متدحلباً كي يقفز على الضفدع المشرئبة رأسه فوق صفحة الماء ، أغلق الذئب العين المفتوحة وفتح العين المغلقة ، حلق غراب ولف في الجو ناعباً ، رفع (الحاج) وجه طفله بكف يده ليريه الغراب ؛ كركع الطفل ضاحكاً ، مست قدم النمس أرضاً مروية فخشى الوحل وتراجع ، قلد (الحاج) صوت الغراب ليزيد من إمتاع وحيده ؛ ثم رفع الولد وأوقفه أمامه على ظهر الحمارة وعضه في خده فاستمر الولد يضحك ، أحست الحمارة بما يجري فوقها فأبطأت كثيراً لكن (الحاج) هشها بساقيه ، والبقرة هادئة تسحب عجلها في الخلف ، أدخلت عمتي نفيسة أولى صحاف السمك في الفرن وانتهـرت الكلب ليبتعد فنهض وتراجع خطوتين وعاد فأقعى مرة أخرى ، وألقت يامنة بحزمة برسيم للأرانب ، وكبّـر الشيخ حسني مفتتحاً صلاة المغرب ، وحمل عبد اللاه زوجته بين أحضانه وأرقدها فوق السرير فاهتزت الفرشة ، وقفز الذئب

داخل القصب ، وترك الثعلب رأس الضفدع وانسل وسط الساسابان ، ثم غمر الدنيا السكون .

بقايا ضوء في آخر غرب الدنيا ، السكون ، تلاشت كل أصوات القرية ، قالت عمتي نفيسة : اللهم اجعله خيراً ، وارتجف الشيخ حسني وارتبك في الفاتحة فاندهش المصلون ، وعوى الكلب وظل واقفاً ، وانفلتت الأرانب إلى جحورها تاركة حزمة البرسيم ، وانخبطت الغمامتان كل في الأخرى فتساقط السواد فوق النخيل والقصب والذرة وصحاف السمك وصحون الملوخية والقلقاس وصفوف المصلين والعيش المقمر ، وكاكت الفراخ منزعجة ، وعوى الكلب مرة أخرى ، وتراجع عبد اللاه للخلف وأنزل ملابسه فظلت زوجته متمعنة في وجهه . وترك عبد الحميد المزين رأسَ صادق ونظر إلى الأفق ، واهتز بدن الحاجة شفاء وأحست بوخز في عنقها ، وأسقط محمد عبد التواب طفله من فوق رقبته ، وتوقف محمود عبد الجابر عن دهان مؤخرة جمله ، ووضع ضيوف محمود عبد الرجال اللقمة في أفواههم وأنصتوا ، وسقطت زجاجة الجاز من يد طفلة وانكسرت البيضة في يد الطفلة الثانية .

سكن جسد القرية كله وانتصبت آذانها متنسمة أي صوت في آفاق السكون .

وهمست أم محمد : اللهم اجعله خيراً . . استر يا رب . . . ودوى عيار ناري .

وخبطت عمتي نفيسة على صدرها وصرخت منزعجة منتفضة :

ـ هذا العيار قاتل . . . . !!

* * *

بعدها بثوان انداح صراخ القرية ملتاعاً :

ـ الحاج وطفله انضربا بالرصاص .

عارياً . . مضى . !

ظلت ذراع الرجل العارية مرفوعة في مدخل المنزل العطن ، والناس تتمعن في كل شرخ أو تنميلة في واجهة البيت علها تتبين تلك الحركة الثعبانية المتوقعة ، كل العيون ظلت مشدودة تتفحص المداميك وخشب الواجهة وجريد السقف وشروخ الحيطان .

ـ آخذ جنيه . .

ومد ذراعه الرفيعة الشرسة إلى أعلى ، إلى آخر الأعلى حتى كادت تلامس السقف . . ثم أدار رأسه إلى القوم :

ـ آخذ جنيه . . .

ومصمصت شفتان وأصدرتا صوتاً مستغرباً ، وانهمرت جملة مجهولة :

ـ أنت يعني هتطلع عفريت . . ؟؟

تقلصت ذراع الرجل ، إتسع محجرا العينين ثم انغلقا ، أنزل ذراعه فتدلت كالحبل :

ـ ربع جنيه كفاية يا أبو البلديات . . .

ـ جنيه كامل وبيني وبينكم حد الله . . .

ثم انحنى فتناول خرقة وألقاها في سلته ووضع عصاه تحت إبطه ، فامتدت أيدي الناس تحول بينه وبين الرحيل .

وقال رجل مشهور بحضور مجالس الصلح :

ـ نتفاهم يا حاج . .

سكن الرجل قليلاً ثم طرفت عيناه ، ألقى بحاجياته على الأرض وخلع قميصه فبدا جسده الرفيع الأسمر كجذع نخلة نجا من حريق :

ـ مدد يا رفاعي . .

وخطا في البيت خطوة ، ثم لم يلبث أن منسح بكفه في الظلام ، انسحل السكون وتناثر :

ـ بحق جاه النبي وكلمة الإسلام ، يا قوة الكرامة ونور الحبيب ، مدد يا صاحب السطوة ومكمم الفواتك . .

وبدأت خطوط الفحيح تسري ، والعيون لا تطرف قابضة على القلوب ، وإذا بالرجل الرفيع العاري الأسمر يصرخ مرتجفاً :

ـ بس . . . بس يا ملعون . . بس يا ديوث . . .

وتراجع للخلف ثم استدار وهمس :

ـ آخذ جنيه . . .

تخلصت العيون من عتمة المدخل وبدأت تتشابك ، قالت امرأة ترملت حديثاً :

ـ جنيه منين . . . ؟؟

ـ آخذ جنيه يا حاجة . . !!

ردت المرأة متقدمة خطوة :

ـ بلاش ربع جنيه ، ندي لك ربع قمح . .

زام الناس وأمر أحدهم المرأة بعدم التدخل ، كانت ذراع الرجل الرفيعة لا زالت متشبثة بالعصا ، ظلت عيناه مختفيتين خلف حاجبيه الغليظين :

ـ جنيه كامل . .

ـ هو احنا أول مرة نطلع حنوشة ، ما طول عمر البلد مليانة مصايب ، اشمعنى يعني النهاردة الحنش بجنيه . . . يا عم وحد الله . . .

ـ جنيه كامل . .

ظل الحشد يلوك الكلام رافضاً الإذعان ، وقص طواب أنه استيقظ منذ أيام فوجد ثعباناً يلتف حول ساقه ولم يخف منه ، وروى مجبر كسور أن زوجته قتلت ثلاثة ثعابين بمفردها ، واستشاط رجل نظيف الملبس غضباً وطلب من الناس التوقف عن اللجاج ، واقترب من الرجل الرفيع وهمس :

ـ ربع جنيه كفاية يا بو الخال . . .

عبثت أصابع الرجل العاري بعصاه ، استدار مرة أخرى وبدأ يخطو داخل عتمة المنزل في بطء ووجهه للسقف :

ـ مدد يا رفاعي . . . سقت عليك النبي تبلع سمك وتكسر نابك ، سقت عليك الحسين تهدأ وتستكين ، سقت عليك اللي البرية مدت له

كفها ونعست ، مدد يا رفاعي ، مدد يا صاحب الجبروت . . .

وتقلص الفحيح الرفيع الحاد ثم خفت . .

ـ إنزل يا ديوث . . . إنزل يا ملعون . . . إنزل يا مفسد الحليب ومجتنز الحلل. . . . إنزل يا قاتل . .

وانهمر الفحيح شوكاً يهز الأبدان ، وتراجع الرجل الغريب للخلف فزعاً ، ثم قفز للأمام خطوة ، وأمعن في سقف المنزل الواطىء . . وعاد يواجه القوم :

ـ برضه هاخد جنيه . .

ـ عليّ النعمة الراجل ده حرامي . .

أخلت كلمة (حرامي) بكل الخطوط وصنعت إعوجاجاً شرساً ، وأغلق الرجل الغريب فمه ـ وعينيه وظل ثابتاً ، وانتفشت الأهداب وفرشت ظلاماً على مقلتيه .

وتوقف فحيح الحنش وظل النخيل سامقاً عفريتاً ، واستمر الحشد حائطاً بدنياً صامتاً . .

وخلع الرجل الغريب سرواله ليصبح عارياً تماماً ، غير أن إدراك الحشد ظل متشبثاً بالصمت ؛ لم يحس أحد أن ثمة ما يخجل يحدث ، لم تنزلق نظرة واحدة إلى جسده المحروق الفحمي ؛ وامتدت أصابعه إلى عصاه فكسرها وألقاها بجوار ملابسه ، وتحرك في هدوء فارداً ذراعيه ، ولم يلبث أن توغل في ظلمة المدخل وصرخ .

ـ انزل . . . إنزل يا مجرم . . . وحياة أبو القاسم لتنزل . . . سقت

عليك أم هاشم . . . إنزل يا ملعون .

واستمر الرجل ينحني وذراعاه تغوصان في عمق العتمة وتخلعان من القلوب أمناً واطمئناناً . .

ـ إنـزل . . . إنـزل . . . مـدد يـا رفـاعي . . . مـدد يـا نـاصر الضعفاء . . . مدد يا قادر . . .

وببطء شـديد متـوجس : انزل . . . انـزل . . . وزحف على الأرض ذلـك الإلتفاف المـذهل الأسـود يتلوى ، قـادمـاً من أعمـاق غويطة ، ودرقته السوداء كبرياء منتصبة . . . تنحدف للخلف وتعـود فتسحب الجسد الثعباني الشرس . . .

ـ أعوذ بالله . . . .

وظل الحنش يتهادى ـ والرجل العـاري يهوم نـاحيته بكفـه منحنياً متوسلاً ، والفحيـح يخترق الجلد والنخيـل والبهائم والحشـد والعظام والقلب والإدراك . . .

ثم تـراجع الـرجل ببطء ، وانتصب فـوق العتبة ونـظر للناس في همس :

ـ شفتوه ؟؟

وتناول عصاه المكسورة ، لف حولها ملابسه وألقاها في سلته ، ثم علقها في كتفه .

وألقى نظرة صغيرة على الحشد . . .

ثم ـ عارياً ـ مضى . . .

ذهاب فقط

وصلت إلى منزلنا قبل أن تشرق الشمس مرهقاً متعباً وتراب السفر يغطيني ، أمي فتحت الباب وألقت بنفسها بين أحضاني وانهمرت في البكاء ، حاولت أن أسكتها لكن إجهاشها المستمر أعجزني ، تاجر زبل الحمام ـ الحقير ـ الذي لا يساوي شيئاً ـ والذي لا نعرف له بلداً ـ أو أسرة ـ أو إسماً ـ تاجر زبل الحمام الذي لا قيمة له سب والدتي ولعنها ؛ وقال لها أنه ـ لولا موانع كثيرة ـ لحطم أسنانها . . .

ورجال القرية ؟؟ قالت أمي . . . وهي تحاول أن تبدو ثابتة بعد موجة البكاء ـ أنه لا نفع فيهم ولا جدوى ، الشيخ ثابت وقف يتفرج ؛ وأحمد خميس كتب شعراً يهجو فيه الرجل الذي يتاجر في زبل الحمام واتهمه ـ في آخر قصائده ـ بأنه لص وغشاش وابن حرام ، وصالح ياسين أخذ الرجل ـ المعتدي ـ من ذراعه وحاول تهدئته وباع له كمية كبيرة من زبل الحمام المغشوش بالتراب وأزبال طيور أخرى ، وعمك عبد التواب أخذ يصرخ في تشنج حالفاً بكل الإيمانات أنه سيقتل الرجل ، لكن التاجر ضحك في عصبية ولم يلق بالاً له ومضى ، وابن عمك عبد الله موظف حكومة ولا يستطيع المقامرة بمستقبله في المشاجرات .

- ١ -

كنت ثائراً عصبياً ضيق الصدر حينما غيرت ملابسي ، طيبت خاطر أمي بكلمات قليلة ، خرجت استعداداً للبحث عن تاجر زبل الحمام الحقير الذي لا يساوي شيئاً ، والذي سب والدتي .

- ٢ -

الشمس بقعت الجدران ، النخيل غطى - بالظل - القرية ، الشيخ ثابت جالس على التراب يلعب السيجة مع رجل لا أعرفه ، ألقيت السلام ونبهته إلى وجودي فأشاح بذراية ويده تتشنج على « كلب » من كلاب السيجة يحاول نقله ، الرجل الآخر يحتج لأن « النقلة » خاطئة وتعد تسللاً ، تحريك هذا الكلب بالذات يخرج عن قواعد « السيجة » ، أود أن أسألكم أين يمكن لي أن أجد تاجر زبل الحمام الذي سب والدتي وهددها بتحطيم أسنانها ! إنتظر حتى ينتهي الدور ، وقفت قليلاً لكن الخلاف استشرى وتركت الأيدي تحريك الكلاب إلى التماسك ، ثار غبار السيجة واختلطت الكلاب السوداء بالحمراء ؛ كلٍ فوق الآخر نام الرجلان في صراع قتالي لتحديد الفائز ، انتظرت قليلاً ومضيت .

- ٣ -

لم أجد صالح ياسين في البيت ، قالت أمه « التي ماتت بعد ذلك بأيام » أنه ذهب إلى السوق ليمارس اهتماماته في التحدث إلى نساء

القرية حيث يجد متعة قصوى في ذلك ، وقد مات صالح ياسين بعد ذلك بأيام .

- ٤ -

أحمد خميس - بنفسه - هو الذي استقبلني ، حدثني قليلاً عن سعد زغلول والمنفلوطي وأحمد شوقي والمتنبي وكافور ما الذي حدث بين أمي وتاجر زبل الحمام ؟. هز رأسه وتناول أوراقاً من سحارة في شباك ، اضطجع إلى الخلف ، نظر إليّ طويلاً ، ثم - بعد أن زفر زفرة حارقة قال :

أسمع . . . .

قلت : نعم .

قال وهو يقرأ من أوراقه :

هزوا اليراع وحاربوا الزنديقا

وقاتلوه ، دم النساء أريقا

التافه المغرور هاجم حرمة

ببذيء كلمات . . .

قاطعته في ضيق . قل لي ما الذي حدث . . .

نظر إلي بقسوة ، وبمرارة أحسست أني أقاوم إعصاراً ، لا بأس ، لكني أود أن أعرف ما الذي حدث ، وأين يمكن لي أن أجد تاجر زبل الحمام . . . .

ألقى أوراقه جانباً ونهرني ، من أصول اللياقة والذوق ألا تقاطع من

يتكلم . . . . قلت له أن للمسألة تأثيرها الخاص عندي ، أن رجلاً غريباً تافهاً تهجم على امرأة دون ذنب ، وسبها ، وسفه عقلها ، وأود أن ألتقي به . . . فهذه المرأة هي ـ قبل كل شيء ـ أمي :

ووقفت على الباب ، فظل ناظراً بعينيه الحمراوين مفتعلاً الفهم والتعالي وقال وهو يهز رأسه :

ويغلبني من ذي الجهالة جهله
وأغلب ذا فهم إذا ما أغالبه
فهذي طباع الدهر فالليث موثق
بقيد من البغضاء والكلب صاحبه
ومن صارع الأسد الضراغم ساعة
فلا بد أن يلقى على الأرض جانبه .

ـ ٥ ـ

منطقة دفن الموتى تفصل بين قريتي وبين المواصلات ومحطة القطار والطريق الزراعي المتجه للعاصمة ، دست على تراب المنطقة الحاوي لخلاصة عظام كل راحلي القرية ، الشوك وأغصان الأشجار وجريد النخيل الجاف والصبار والأحجار وشواهد القبور عطلت كثيراً من مسيري ، في الطرف الشمالي للقبور يقيم الشيخ محمد الصباغ ، الباب مفتوح والشيخ الصباغ ، نائم يغط ورائحة الصمت والخوف والموت تغلف المكان .

الشيخ الصباغ تحرك قبل أن أتكلم ؛ فتح عينيه اللتين ندتا كرقعةٍ من تلك الرقاع التي تشكل ملابسه .

وضعت يدي في يده ولثمتها ، أحسست بالراحة تغمرني .

ـ أين يمكن لي أن أجد تاجر زبل الحمام . . .

ـ ما اسمه . . .

ـ لا أعرف . :

شدني من ملابسي وأجلسني بجوار زير مياه تطن حوله الزنابير ، ظل شاخصاً إليّ ممسكاً بتلابيبي ، اضطجع على الحائط ، تركني ، لم يبتسم ، لم يتكلم ، لم يفتح فمه ، سحب ذراعه ، وضعه تحت رأسه ونام . .

- ٦ -

ياسمين السوداء كالليل ، اللدنة كغصن الرمان ، القديمة كالحزن ، الفاجرة كالغازية ، تضرب الودع وتكشف البخت وتضاحك الرجال وتعابثهم علناً بشكل صاخب ، كانت جالسة تحت شجرة التوت الغليظة الجرداء في سويقة القرية . . .

ـ ارم بياضك .

ألقيت « بالبياض » النقدي وسط ذكور وإناث الصدف بعد « الوشوشة » المقررة . . . . ياسمين ـ وهي تعبث في أصدافها ـ ظلت تتكلم وتصرخ وتومىء وتشير دون أن أفهم ، مددت يدي على حلبة البخت وجمعت ما فيها ولففت المنديل كله وركنته جانباً وصرخت :

ـ ياسمين . . .

ردت مشدوهة :

- نعم . . .

- أين يمكن لي أن أجد تاجر زبل الحمام ؟

- أي واحد فيهم ؟؟

- لا أعرف . .

سكتت قليلاً ثم همست :

- قريتكم لا يأتي إليها إلا ثلاثة من تجار زبل الحمام ، واحد يأتي في الصيف في أعقاب القمح ، ولسنا في أعقاب القمح وواحد يأتي في موسم القطن ، ولسنا في موسم القطن ، والثالث : يأتي في أي وقت ويمكن لك أن تلتقي به - صدفة - في أي مكان .

- ياسمين . . .

- نعم . . .

- أريد أن أعرف المكان الذي يقيم فيه تجار زبل الحمام .

- هل تعرف شيئاً من قرى الغروب ؟ .

- إسمع عنها . . .

- في الغروب هناك على حافة الصحراء ، عند نجع أبي كريم ، ساو ، أمشول . دشلوط ، دعك من كل هذه القرى ، بعد نجع أبي كريم يمكن لك أن تجد مضرباً من مضارب البدو . . كل تجار زبل الحمام يقيمون في ذلك المكان . .

- لكن أود أن أعرف اسم تاجر زبل الحمام .

ـ لقد تعودت قريتكم ألا تعرف أسماء الغرباء الذين يمارسون أعمالهم فيها : تجار الحناء والشيح وزبل الحمام والتوابل والغجر والقرادتية وقصاصي شعر الحمير وكوائي الجمال وتجار الجلود وبائعي السكاكين والمقصات والشراشر .

ـ وهل أذهب إلى هذا النجع الملعون وأقف وسط أهله . مَن من تجار زبل الحمام هو الذي سب والدتي وأهانها وهددها بتحطيم أسنانها ؟!

ـ وهل يوجد حل آخر . . . ؟!

ـ ٧ ـ

من بانوب ظهر الجبل إلى كودية الإسلام وكودية النصارة ، وببلاو ، ثم إلى أمشول وساو ودشلوط ، ثم . . . وأنا أقف في مفترق طرق خبطت يد ثقيلة فوق كتفي .

بعد الإندهاشة الأولى أحسست أن الوجه ليس غريباً ، أهلاً وسهلاً : أهلاً وسهلاً ، مسح على شاربه وهمس لي بصوت عال : غريب ! وضع يده فوق كتفي وأحسست بالراحة ، نعم : أنا غريب ، سرنا قليلاً ، سألني عن بلدي ، شاربه كث ووجه ميغضن ، يلف نفسه في ملابس ملونة لكنه باش مرح ، إذن فأنت تبحث عن أحد تجار زبل الحمام الذي لا يساوي شيئاً لكنه تهجم على أمك وسبها وسفه عقلها . . . إزداد التصاقاً بي فازددت شعوراً بالإطمئنان ، أنا إبراهيم شهاب ، أهلاً وسهلاً عدت فسلمت عليه وبدأنا نتضاحك ، قال أنه يود أن يخدمني ، اضطرب القلب وازداد الوجيف وشعرت بالقلق

والارتباك والخوف والتوجس ، أشجار الكافور تغطي المنطقة والغربان تمرح فوق الأغصان وعلى اليمين مجرى مياه آسنة وعلى اليسار نبات الحلفاء يعج بالحشرات ، قال إنه يعرف جميع رجال ونساء نجع تجار زبل الحمام وأنه كثيراً ما قام بأفعال شائنة مع نسائهم ، وقال إنه ينصحني بالعودة ، وأن أترك الأمور له ، ثم نبهني إلى أنه لا داعي لخوفي منه حيث إنه لا يميل إلى الاعتداء على واحد مثلي لا يملك شيئاً « وضحك » قلت له إنني لا أستطيع أن أنسى أن رجلاً غريباً اعتدى بألفاظ نابية على والدتي ، ازدادت ضحكته اتساعاً وأمسكني من ذراعي ، تحت شجرة كافور وضغط عليّ حتى جلست ، عيناه تشعان بالذكاء ولا توحيان بالإطمئنان ، قلت له أن يتركني لأنهي مهمتي . جذبني إليه بحدة شريرة وصرخ فيّ هل تعرفني ، لم أرد لكنني ازددت انتفاضاً ، قال : أنا إبراهيم شهاب : ألم تسمع عني ، ألا تعرف أنك تمر داخل مناطق أبسط عليها كل نفوذي ، أعطني مالاً وأنا أذبح لك من تريد من تجار زبل الحمام ، قلت أنني لا أملك مالاً ، ضربني بقسوة فوق وجهي ، المفلسون لا يساوون أوراق الأشجار الجافة ، اشتعلت النار في كياني وتباعدت عنه واقفاً ثم كدت أجري فأمسكني من يدي وجذبني إليه ، الخلاء يطن بالصمت وصوت الرياح الخفيفة وحفيف الوحدة يهزني ، حاولت أن أعود لابتعادي لكنه ظل ممسكاً بي ، إنك من قرية ملعونة كل من فيها يعتقد أنه ظل الله على الأرض ، رجالها يعتقدون أنهم بطن من بطون هلالية أبي زيد الهلالي ، منذ سنوات أهانوني في سوق القرية ، وقبلها شجت امرأة جميلة رأسي لأني راودتها عن نفسها وكأنها من نسل الإمام

علي ، أنا لطيف معك فيجب أن تكون لطيفاً معي ، كنت أغلي ورفضت أن أعقل ما يتحدث به ، قاومته فعاد إلى ضربي بكل مرارة اليأس تحركت أعضائي لتتحرك ذراعاي وتخبطان بقسوة فوق رأسه ، لكن الملعون عاد إلى جسدي فاحتضنه ، ألقاني على الأرض وألقى ملابسه جانباً . ضربني حتى أغمي عليّ ، خلع ملابسي وألقاها في الجدول الآسن ، حملني فوق كتفه وظل يخترق بي المزروعات والجداول والكثبان المتاخمة للوادي ، كنت عاجزاً صامتاً حزيناً وكان شرساً غاضباً متوتراً ، ظل يسير داخل الكثبان الرملية حتى أشرف على تل تقوم في سفحه عدة خيمات . . .

نظر إلى الخيام . . . أشار إليّ أن أسير خلفه فعجزت ، حملني - عارياً - جثة - حزيناً - غير واع - فوق كتفه حتى وصلنا إلى مضرب الخيام . . .

تجمع الرجال والنساء حولنا ونحن نخترق النجع :

يا تجار زبل الحمام . . . يا حقراء المنطقة . يا من لا تساوون شيئاً . أحدكم سب والدة هذا وأنا أريدكم أن تسلموه لي لأقطع رقبته . . .

وألقاني - بقسوة على الأرض ووضع قدمه فوق رقبتي .

الجبارنة

* اختلج صوت الجبارنة حزناً ، أشار إليهم جابر الكبير - المسجى - رامشاً أن يجلسوا همس واحد باكياً . - أوصنا يا أبانا . فظل جابر الكبير ممعناً وصامتاً .

* أسرع واحد فجمع أعواداً في حزمة واحدة ليذكرهم بأن الاتحاد قوة . فظل جابر الكبير ممعناً وصامتاً .

* تهدج صوت آل جابر بترنيمة عن وزير بدأ حياته في جب . فظل جابر الكبير ممعناً وصامتاً .

* رتل ذو صوت صادح حكاية المبتلي في جسده بالقروح فحملته زوجته إلى الأصقاع بحثاً عن علاج . فظل جابر الكبير ممعناً وصامتاً .

* تقلب وجه الجبارنة في الأركان والسقف والفراش ، ثم في وجه جابر الكبير المشع نوراً : - أوصنا يا أبانا .

* وقبل أن ينغلق رمش عين جابر الكبير همس في قوة : أوصيكم باقتناء جمل .

- ١ -

جمل ، ووفود المعـزين تتمتم صبراً وسلوانـاً ، الرب أخـذ والرب يعطي ، طول عمر الجبارنة ما فكروا في جمل ، وتصدر جابر الكبير مأتم جابر الكبير فظل الجمل يهوم متشكلاً ضاغطاً ، تسرب من الوصية إلى الهمس ، وكل هنيهة يقترب فم جابر نحو أذن جابر : الرب أخذ والرب يعـطي ، فمنذ أن أصبـح لذوات الأربـع أربع ونجـع الجبارنـة يحب الحمـير ، يمتطي الحمـير ويقص شعر الحمـير ويصبـغ الحمـير ويلجم الحمير ، ويقلم الأظلاف ، ويصنع البراذع وزنابيل السباخ ، ويداوي الظهور ويكافح التسلخ وكسور الركب وتآكل الحوافر ، وأي جابر يحبو يمكنـه ـ ومن النظرة الأولى ـ أن يعـرف نوع أي حمـار ، وسنه وعـدد الحدوات التي أهلكها ، وموطنه الأصلي ، وما حاق به من تجارب منذ نعومة حوافره ، الرب أخذ والرب يعطي ، جمل ، وما كاد المأتم ينفض حتى أيقن نصف الجبارنة أن جبران العمودي عاش خمسة وثلاثين عاماً ناسكاً متوحداً فوق عمود بسبب خلو النجع من الجمال ، جمل شامخ سامق ، وكانت الجمال تعبر الصحراء حاملة للرهبان المنقطعين الخبز والحطب والصبر والقدرة ، واستظل الأنبا « جرابامون » بجملة اتقـاء الهجير ثم نحره جوعاً فبكى الجمل راضياً ، ثم أيقن النصف الباقي من الجبارنة أنهم ليسوا كأولاد عبد المعز الذين وهبوا حياتهم للماعز، أو آل مفتاح الذين يسيحون في النجوع ليصلحوا مغاليق الأبواب ، كما أنهم بعد اليوم لن يكونوا كتلك الجماعات المعروفة التي وقعت في بـراثن الدجاج أو الأرانب أو فتح المندل أو دق طبول الزار أو صنع التمائم أو

سرقة أكفان الموتى او تجليخ المقصات والسكاكين . جمل ، شكراً للرب أولاً ثم لجابر الراحل بعده .

وظهر أول جمل قادماً من سواكن أو سمالـوط أو درب الأربعين أو سيوة ، أطل على النجع بسنامه العالي ورقبته الشامخة ورأسه المتطلع إلى السحب ، وتدفق صوته المشابه لصوت اندفاع المياه من القلة ، هادئاً صبوراً يسير الهوينى على بساط الرحمة ، وسرت موجة الحبور في الجبارنة فاهتزوا وتقافزوا ، وتشعبط جبير في الرقبة العالية ، وتسلق جبران سنام الجمل لكنه سقط ، وتعابثت جبرانة في الذيـل القصير فـازداد النجع مرحاً ، ومار آل جابر بالنشاط والسعادة ، وكل يوم يمر تفد الجمال إلى النجـع وكل جمـل يفد يكتشف الجبـارنة اللحم والشمـوخ والوبـر ، ويكتشفون ما عانوه داخل تلك البيوت الكابية ذات الحارات الكابية ، فقام الجبارنة بهدم أصداغ البيوت وتوسيعها ، وقاموا بفرش الرمل في الأفنية والباحات ، وقامت جبيرة باختلاق مغزل يثير الضحك لكنه أنتج من الوبر خيوطاً ، وتجمعت الخيـوط في آخر الأمـر تلفيحة عـلى عنق جبـرانها ، فقام جبـور أريب بتركيب نـول فامتـلأ النجع بـالزعـابيط والتلافيح والأغطية والدفء ، وقام جبارة قديم بتعليم الصغـار كيف يصعنون الهوادج ، وانتشى النجع حينما زف أول عروس في حياته على ظهر جمل ، كانوا ـ في ذلـك العصر الذي لا يميلون إلى التفكـير فيه ـ ينقـلون العرائس من بيت لبيت دون تلك الفرحة القصوى التي تشع ، الهودج المنمق المزخـرف والعروس فـوقه تتـلألأ وتتألق والجمـل تحتها يتهادى ، وتنطلق الأعيرة النارية فلا يفـزع ، وتنطلق الـزغاريـد فلا

يفزع ، وتشتعل النيران فلا يفزع ، وتنذبح الجمال ـ كرماً وحفاوة ـ فلا يفزع ، حتى أن من تزوج من قبل صمم على أن يعيد الاحتفال بزواجه من جديد .

* * *

وخلال سنوات قليلة امتزج الجبارنة بالجمال وامتزجت الجمال بالجبارنة ، ارتفعت أسقف بيوتهم وارتدوا الحبرة والكوفية والمراكيب الأنيقة ، وبزوا العربان في صناعة الهوادج وتنميقها ، ونجحوا في اكتشاف مزيج جديد لعلاج الجرب ، وتمكنوا من حفظ اللحوم المتبلة شهوراً ، وقام جابران متجاوران بتخزين الدهون وبهريز العظام ، وتمكن جبرون من احتكار جلود الجمال وأجاد تسويقها في النجوع المترامية في الوادي ، ونجح جبرة صبور في استحداث علاجات للبهاق من أحشاء الجمل ، وللصمم من طبلة أذن الجمل ، وللسير أثناء النوم من خف الجمل ، ولاضطراب الدورة الشهرية من نخاع الجمل ، وللتزود بالثقة ليلة الزفاف من حليل الجمل ، ثم ـ . . . نجح جبرة أكثر صبراً في تجفيف عروق الجمل وسحقها مع الوبر المحروق وشحم مؤخر الرقبة ليصل إلى مزيج لعلاج العقم ، فازداد النجع شموخاً ، وفخراً ، وزهواً ، حتى أن أجساد الجبارنة استطالت ، ورقابهم علت وشابت أصواتهم غنة تدفق المياه من القلل ، وغلظت عيونهم ، وقصرت آذانهم ، ثم لم تلبث مشافرهم أن انشقت ، وأقدامهم أن تفلطحت .

* * *

* اختلج صوت الجبارنـة حزنـاً ، أشار إليهم جابر الكبير ـ المسجى ـ رامشاً أن يجلسوا همس واحد باكياً :

ـ أوصانا يا أبانا :

فظل جابر الكبير ممعناً وصامتاً .

أسـرع واحد فجمـع أعواداً في حـزمة واحـدة ليذكرهم بأن الاتحاد قوة .

فظل جابر الكبير ممعناً وصامتاً .

وتهدج صوت آل جابر بتـرنيمة عن وزيـر بدأ حياته في جب . فظل جابر الكبير ممعناً وصامتاً .

رتل ذو صوت صادح حكايـة المبتلي في جسـده بـالقروح فحملتـه زوجته إلى الأصقـاع بحثـاً عن علاج .

فظل جابر الكبير ممعناً وصامتاً .

أنشد ذو صوت رخيم موعظة الجمل الذي جاب الفيافي بحثاً عن قاتل صاحبه .

فظل جابر الكبير ممعناً وصامتاً .

تقلب وجـه الجبـارنـة في الأركـان والسقف والفراش والأغطية والصوف ، ثم في وجـه جابـر الكبير المشع نوراً .

ـ أوه .. يا أبانا .

وقبل أن ينغلق رمش عين جابر الكبير همس في قوة

ـ أوصيكم باقتناء بغل .

ـ ٢ ـ

نجع طاهر ابن طاهر من أصلاب أطهار ، كيف فات عليه أمر البغال ؟ ، وبمجرد الانتهاء من قبول العزاء في جابر الكبير كان النجع ينظر بنصف عين إلى الجمال الباركة ، حجمها الضخم وعيونها الغبية ورقابها الملتوية ، وهمس جبور في أذن جبور : الرب أخذ والرب يعطي ، تصور : لم أستطع أن أذوق لحومها أبداً ؟ ، ووقف جبران على هودج مركون وحمد الرب ، والجمل كما تعرفون ابن صحراء ونحن نعيش في وديان ، وابن جبرانة الوحيد فتك به جمل ، خلصناه ـ يا عيني ـ أشلاء من حنك القاعود ، وقبل أن تتفاعل العقول مع الذكريات الأليمة ظهر البغل ، وديعاً أطل وهادئاً تحرك وكأنه قادم من منازل القمر ، وقامت جبيرة مزغردة ونثرت الدقيق على الوجه الرصين ، واهتز وجدان الجبارنة فأطلقوا النيران والأقوال والحكم ، وكل بغل يفد يكتشفون فيه الخصال والميزات ، اعتمد عليه الأنبياء في رحلاتهم المرهقة إلى عنان السماء ، وشارك العلماء في اختراقهم المضني لصحراوات تونس وأسبانيا والنمسا والبنغال ، حمل الكتب والقوارير والخيام أحقاباً طويلة ، ما سمعنا أبداً أن جملاً تمكن من اجتياز قناة ، الرب أخذ والرب يعطي ، وما سمعنا أبداً أن جملاً صعد جبلاً ، دعونا من الجمال ولا داعي لإثارة الشجن أو توجيه اللوم ، نحن أبناء اليوم ، فصرخ جبران مكلوم أن

يتقوا الرب ويتركوا الخلق يقولون كلمة الحق ، ثم علا صوته وتـدفق مغرقاً المكان : أي واحد منكم ذلك الذي يستطيع أن ينسى واقعة فرن جبرون الطيب ؟ . والجبارنة أناس طيبون لكن الأمر صحيح ، فقد كان جبرون الطيب عائداً في ذاك اليوم ممتطياً قاعوده الأثير ، وعند انحناءة البيت الكبير هاج القاعود ، هاج وتلاطم في الجدران واندفع في الشوارع عاصفة ، وجبرون الطيب ـ متشبثاً بظهره ـ يصرخ ، والجبارنة ينظرون من الأبواب والكوات ويضحكون ، ثم تمكن القاعود الهائج من قذف جسد جبرون ليصكه في حائط ولتنكسر رقبته ، واستمر القاعود يخترق حتى اقتحم بيت صاحبه ، فانهارت الجدران على آل جبرون الطيب ، وظل القاعود يدك المكان بسيقانه وعوارضه حتى انهار الفرن واشتعلت النيران ، وماذا يا جبران المكلوم ؟ ومع ذلك ظل الجبارنة يضحكون ، حينئذٍ ثار جبير صامتاً واندفع إلى جمله فعقره إثباتاً لكراهيته لمثـل هذا الحيوان ، وكاد النجع يتحول إلى مذبحة لولا أن البغال استمرت تهل .

* * *

وارتاح البغل في نجع الجبارنة ، وتحول بسرعة إلى همة ونشاط وجر وشحن ، وقام أربعة جبرانات بفتح ورشة عربات ، وساعدوا جبوراً مكـافحاً كي يصبـح حـداداً ، وجبـوراً متسلقـاً أن يصبـح نجـاراً ، واستحـالت الباحـات والأفنية والأحـواش إلى أماكن تجميـع سـطوح وعجلات وعرائش العربات ، وانتشى الجبارنة وهم يرون بغالهم تخترق الطرق ساحبة خلفها العربات إلى كل النجوع المجـاورة ، ولأول مرة عرف النجع تمهيد الطرق وتسويتها . وأجاد معرفة نوع الشجر والخشب

والحديد ، وظهر منهم نابغون في مداواة الجراح وتركيب الحدوات وبذل خراريج البغال ، وظهرت بيوت متخصصة في السروج والركابات والتحزيم والتعريش ، وقام منظرون بتوجيه الجبارنة إلى أحسن طرق مغاداة جراح الاحتكاك وأورام القوائم وتسلخات الظهور ، وكلما عج النجع بالبغال والعربات ازداد الجبارنة زهواً واكتنازاً .

واندفعت طهارة البغل إلى السلوك والكلام ، أي عصر ذاك الذي جعلهم يتجمعون حول حمارة وحمار يسعيان للتواصل ؟، وأي فجاجة تلك التي كانت تؤذي عيونهم بمنظر ناقة مبطوئة أرضاً وجملها يرغي ويزبد رغبة فيها ، فلنردم الذكرى ولنسعد بالجبارنة وهم يمارسون حياة نقية دون تعشير وعسس وتوليد وقاذورات ، وألقت الطهارة ظلها على النجع كله ، فأصبح هادئاً مستكيناً ، يثابر ويتاجر ويتقاسم الرزق ، وبدا آل جابر موفوري الصحة سليمي الأسنان والقواطع ، ولم يعد لأحد منهم صوت منفر كأنكر الأصوات أو حنجرة مجلجلة كانسكاب المياه من القلل ، فلم يكن البغل ضاجاً أو مزعجاً ، صوته ناعم رقيق ليس نهيقاً ولا ثغاء ، إنما هو هذا الصوت اللين الرقيق المشابه للهسيس ، مجرد هسيس غير مقلق حتى كاد الجبارنة يحسون أنهم لم يناموا طوال حياتهم إلا الآن ، وانكمشت حناجرهم وتضخمت أكتافهم ، واستطالت مناخيرهم وسمنت كواهلهم ومؤخراتهم ، وبدا أن الجر والشحن والنقل والتخزين والترتيب والمتاجرة قد داست على ذلك الشوق . الموروث للزوجة والأنجال ، وأصبح سهلاً على أي جابر أن يتوغل في النجوع أياماً وشهوراً دون قلق أو توجس ، وبدأت أقوالهم ومواويلهم

وأشعارهم تخلص من رذائل العشق والعوازل والخيانة والهيام ، وانتفت من حكاياتهم هذه المباذل التي أغرقتهم فيها عصور البذاءات ، ثم لم يلبث الجبارنة أن توغلوا أكثر في عالم الرصانة والحكمة المبطن بـالهدوء والنوم دون ضجيج الأحلام .

* * *

اختلج صوت الجبارنة حزناً ، أشار إليهم جابر الكبير ـ المسجى ـ رامشاً أن يجلسوا . همس واحد بـاكياً : أوصـانا يـا أبانـا فظل جـابر الكبـير ممعناً وصامتاً .

* أسرع واحد فجمع أعواداً في حزمة واحـدة ليذكرهم بأن الاتحاد قوة . فظل جابر الكبـير ممعناً وصامتاً .

* تهدج صوت آل جابر بترنيمة عن وزيـر بدأ حياته في جب . فظل جابر الكبير ممعناً وصامتاً .

* رتل ذو صوت صادح حكاية المبتلي في جسده بـالقروح فحملتـه زوجته إلى الأصقـاع بحثـاً عن علاج : فظل جابر الكبير ممعناً وصامتاً .

* أنشد ذو صوت رخيم موعظة الجمـل الذي جاب الفيافي بحثاً عن قاتل صاحبه ، فظل جابر الكبير ممعناً وصامتاً .

* انطلق هسيس ذو شجن يحكي عن بغل صادق

ظـل يسحب عربتـه خلفه دون أن يـدرك أنها قـد انفصلت وسقطت بصاحبها في مستنقع . فظل جابر الكبير ممعناً وصامتاً .

* تقلب وجـه الجبـارنـة في الأركـان والسقف والـفــراش والأغــطيــة والصــوف والـســروج والحدوات . ثم في وجه جابر الكبير المشع نوراً : أوصنا يا أبانا .

* وقبل أن ينغلق رمش عين جابر الكبير همس في قوة : ـ أوصيكم باقتناء حلوف .



ديروط الشريف

دروت سرابام

بفتح الدال وسكون الراء :

قرية كثيرة البساتين والنخل ، أنشأ فيها الشريف ابن ثعلب جامعاً على فم المنهى ، وتقع في وسط صعيد مصر .

بتصرف قليل من ياقوت الحموي

معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٥٣

ديروط الشريف

هي من القرى القديمة ، ذكرها إميلينو في جغرافيته ، فقال : إن اسمها القبطى : تيروت سراباان ، نسبة إلى القديس سرابامون . وورد في معجم البلدان (دروت سربام) وقال إنها قرية كثيرة البساتين على فم المنهى (بحر يوسف) من الصعيد بمصر ، وفي المشترك لياقوت (دروط سربان) بكورة الأشمونين ، وفي قوانين ابن مماتي وفي تحفة الإرشاد (دروط سرابام) وفي التحفة (دروة سربام بالأعمال المنفلوطية) نقلاً عن الأشمونين ، وفي الانتصار (دروط سرمام) وهي (ديروط الشريف) وفي صبح الأعشى : ذروة سربام وهي ذروة الشريف ، نسبة إلى الشريف حصن الدين ثعلب الجعري ، وبها داره وقصوره والجامع الذي أنشأه بها ، وفي ربيع سنة ٩٣٣ هـ دروة سربام ، وفي تاريخ سنة ١٢٣٠ هـ باسمها الحالي ديروط الشريف (والتأريع معناه تحديد الريع) .

ووردت بأسماء : دروة سربام ، ودروة سرابايون ، ودروط الصربام ، ودروة الشريف .

وكل هذه الأسماء محرفة عن اسم ديروط الشريف الأصلي (تروت) وأما المضاف إليه فهو محرف عن اسم : صرابامون ، وهو راهب كبير من

رهبان القبط في العصر المسيحي الأول ، ثم حرف إلى سراباان وسربام .

ولما أنشيء قسم ديروط سنة ١٨٢٦ م أصبحت بلدة ديروط قاعدة له ، وقد سمي مركز ديروط سنة ١٨٩٠ .

ولما أنشئت السكة الحديدية انتقل ديوان المراكز والمصالح الأخرى من ديروط الشريف إلى مكانه الحالي بقرية ديروط المحطة الواقعة بجوار محطة ديروط ، بأراضي بني يحيى القديمة ، والمسافة بين ديروط الشريف ومحطتها نحو ثلاثة كيلومترات .

محمد رمزي

القسم الثاني - الجزء الرابع

من القاموس الجغرافي للبلاد المصرية

رصد تواريخ وأماكن نشر قصص المجموعة

هولاكو	ملحق العمال	يناير ١٩٧٠
موقعة الجمل	الزهور ـ الهلال	يناير ١٩٧٣
كلب السنط	مجلة نادي القصة	يوليو ١٩٧٠
اغتيال	الجمهورية ـ	مارس ١٩٧٢
كوبري البغيلي	الثقافة	مارس ١٩٧٥
عملية خطف أميرة	صباح الخير	اكتوبر ١٩٧٤
القربان	الآداب (بيروت)	سبتمبر ١٩٧٣
	الأقلام (بغداد)	يوليو ١٩٧٧
عباد الشمس	المساء	يوليو ١٩٧٥
الفرسان يعشقون	الثقافة	مايو ١٩٧٧
امرأة	الزهور ـ الهلال	نوفمبر ١٩٧٣
حافة النهار	الثقافة	يوليو ١٩٧٤
عارياً مضى	الكاتب	نوفمبر ١٩٧٤
ذهاب فقط !	سنابل	مايو ١٩٧١
الجبارنة	إبداع	يناير ١٩٨٣

من التاريخ السري لـ:

نعمان عبد الحافظ

فصل في المولد والنسب

واحد في هذه الدنيا لا يمكنه أن يحدد العام الذي ولد فيه نعمان ، يقيناً كان الراشيستاغ الألماني قد أحرق تمهيداً لأن يتخلص أدولف من المعارضين للرايخ الثالث ، كما أن لينين كان حتماً قد مات وسلم روسيا الاشتراكية الى خلفه العنيد ، ومن المتعذر أن نعتقد أن تشمبرلين قد تولى أمور العظمى بريطانيا حينذاك ، وليس من المؤكد أن يكون عمي محمد (بكسر الميم الأولى والحاء) قد خرج من السجن في قضية استزراع الخشخاش وسط القطن ، وهو الوقت الموازي لحكاية ساعة جدي الحاج مستحاب[1] ، وبالتالي يمكن أن نقفل الأقواس على موعد تقريبي لميلاد نعمان ، كي نضرب على أيدي بعض الآراء التي حاولت أن تنال من رجلنا ؛ إذ أصبح راسخاً أن نعمان ولد في أحد أيام الهجير الشديدة الحرارة ، والتي يبدأ فيها محصول الأذرة النيلية في النضج ، فقد كانت السيدة أم نعمان تحتكر بيع الملوحة على الشواطىء المتعرجة لبحر يوسف الممتدة من شمال قناطر ديروط حتى التواءات عزب أبي جبل ، وقد ولدته في عشتها المتحركة والتي تخضع تحركاتها لكل فجائيات الفيضان ، بعيداً عن بقع الكثافة السكانية ، ومن المحتمل أن أحداً ساعدها في عملية الوضع ، غير أن هذا الاحتمال لا يشغلنا ، فقط فإن نعمان - بالقطع - كان يمكنه أن يتسلق نصف جذع نخلة ، أو يتعاوم في قنوات

بحر يوسف ، أيام محاصرة الدبابات الانجليزية لقصر عابدين وتسليم الوزارة لمصطفى النحاس باشا ، وهذا ما يتفق تماماً مع ما أثير من أن نعمان ولد بعد الهوجة[٢] بزمن غير معروف (في رواية نميل الى الوثوق بها للشيخ عبد العزيز خليل) ، وبالتالي كان صعباً إخضاع (الهوجة) لمدلول معين : هوجة عرابى أم هوجة سنة ١٩١٩ أم هوجة الغز الذين تقاتلوا مع باقي قرى المنطقة سنة ١٩٣٤ وانتهى الأمر بنزوح عائلات من قراهم الى بطون جبال وأجنحة وديان ، وهذا نفسه ما يجعلنا نستبعد روايات أخرى يرقى اليها الشك ، منها ما روته عمته الوحيدة ـ التي ذهبت ضحية للسكساح ـ من أنها احتست الشاي في بيت خفير لحظة سماعها نبأ مولد نعمان ، إذ أن الشاي ـ في بواكير دخوله البلاد ـ ظل زمناً طويلاً ـ وحتى بعد خروج عمي محمد من السجن ـ وقفاً على الطبقة العالية ، ومن الروايات الضعيفة أيضاً ما قيل من أن نعمان عبد الحافظ ولد أثناء الاحتفال بليلة الشيخ ربيع مرسي بلال ، إذ بمراجعة أسماء وليالي المشايخ المعتمدين في القرية ثم في المنطقة ، وبمناقشة حوارييهم والداعين لهم لم نطمئن لوجود شيخ له هذا الاسم[٣] .

وأصبح قريباً من المؤكد أن نعمان رأى الدنيا على شاطىء بحر يوسف في الفترة التي تتسع لثماني سنوات بعد عام ١٩٣٠ على أدق الفروض .

وأبو نعمان هو : عبد الحافظ خميس . واحد من بطون عائلات الحدايدة المتوطنة في جنوب ديروط الشريف ، لم يكن من أصحاب الأملاك : أرضاً أو عقاراً أو تجارة ، غير أن الرجل كان ذا صفات منفردة جعلته واحداً من أشهر الشخصيات في أواخر القرن ١٩ وثلث القرن

العشرين ، إذ كان رياضياً يمارس رياضة الجري وراء حمير الأعيان أثناء مشاويرهم من القرية الى ديروط المحطة في عز البرد أو الحر ، كان صامتاً عزوفاً عن معاشرة الناس ، حتى أثير حوله كلام عن توسعه في ميوله الرياضية ، فقد بدأ يستولي على محاصيل بعض المواطنين بكميات قليلة . . . ليلاً ، حتى تضرر الناس فاضطروا أن يتلمسوا الوسائل لضبطه متلبساً ، لكن عبد الحافظ خميس - بهدوئه - لم يترك لهم فرصة تحقيق مآربهم فيه ، ثم لم يلبث أن غاب فترة وعاد الى القرية يقود - في كبرياء هادئة - جملاً ، وظل أبو نعمان يعمل على جمله دون توقف أو تكاسل إلا في حالات قليلة (مثل حلول ليلة الشيخ أبي هارون) ، إذ كان ينتظر يوماً كهذا بفارغ الصبر ، يترك جمله باركاً أمام منزله ، ويهرع الى نصبة الغوازي فاغر الفم منبسط الأسارير يحتسي القرفة ، وعندما تمر الغازية أمامه للمرة العشرين أو الخمسين تنفعل أعضاء أبي نعمان ، فيلقي بلبدته على الأرض ويهتز حولها راقصاً على إيقاع التصفيق الصاخب الخلاب ، ثم يرهق فيسقط إعياء على أول دكة ، ويخرج القطعة المعدنية من جيب جلبابه الكتاني فيلقيها الى الغازية في فخر ، حيث - بعدها - يظل صامتاً حتى تباشير الصبح .

ثم حدث أن راقصة تدعى (بدرية) لم تترك له فرصة - في سنة ما - أن يعود الى منزله بعد تأدية واجبه ، إذ تسامرت معه فتشابكا في علاقة قوية ، استمر عبد الحافظ خميس يجترها - هذه العلاقة -، حتى عادت الغازية في العام التالي ، فباع جمله الوحيد ، وظل يدور وراء بدرية في العزب والكفور والمدن حتى تلاشت أخباره تماماً .

وترددت أقوال ـ سندحضها فيما بعد ـ من أن أبا نعمان مات مقتولاً في الدبر المحرق أثناء احتفالات مسيحية وأن بعض رجال القرية شاهدوا جثته بأعينهم ، كما قيل أيضاً أن الرجل قتل في عام ١٩١٩ خلال مهاجمة أهل القرية للقطار الانجليزي الشهير أثناء الثورة[٤] ، ثم ردد بعض الموتورين دعاوى أخرى تتضمن أنه تزوج من الغازية وأصبح واحداً من جوقتها ، كما أن رجعياً روى أن عبد الحافظ خميس قد تاب وانضم الى مريدي أحد ذوي الكرامات في بقعة جبلية .

والذي يدحض كل هذه الافتراءات أن أبا نعمان عاد ذات عيد ، عاد الى القرية والى الدرب والى زوجته ، صامتاً كعادته مثقلاً بالتجارب والوعي ـ ودون جمل ، وظل منطوياً على نفسه فترة ثم بدأ يمارس هواياته الأثيرة ، غير مستمع الى نصح أو مستجيب لإرشاد أو مهتم بوعيد ، حتى ضاق أهل الدرب فيه ، ليس فقط بسبب سلوكه في المزارع ، بل لأن هذه الإشاعات جاءت متوازية مع تعدد اختفاء الدواجن وصغار الماعز من الدرب .

وفي الثلاثينيات عقد (مجلس عرب) وأدين عبد الحافظ خميس غيابياً حيث صدر الأمر بالإجماع على أن ييسروا له مبارحتهم ، فلما لم يقم الرجل وزناً لقرارهم بدؤوا يؤذونه في نفسه وماله ، وقد تردد أنهم أحاقوا به الأفعال الشائنة الآتية :

(أ) داهمه عجل هائج أثناء تناوله العشاء مع أم نعمان ، في باحة منزله ، مما أحدث تحطيماً في ضلعه الثامن الأيسر ، ولم يقدم أحد تفسيراً

أو اعتذاراً عن الحادث .

(ب) تواطئوا مع الخياط الـذي سرق جـزءاً من قماش جلبـابه ، فاضطر أبو نعمان أن يكمل الجلباب بقماش ذي لون مختلف .

(جـ) رفضوا استدعاءه للشهادة في قضية مقتل أبي ادريس رغم أن قطع رقبة المقتول تم أمامه .

(د) دسوا له عند أحد حواة استخراج الثعابين والعقارب : فأعلن الحاوي خلو بيت أبي نعمان من الحشرات والزواحف وفي اليوم التالي بخ ثعبان في السمك ، ولولا بصيرة أبي نعمان وحذره ووعيه لراح ضحية الحادث .

(هـ) سرقوا جلبابه أكثر من مرة : سواء من شاطىء الترعة أو من داخل منزله[٥] .

وقد ظل الرجل صابراً صامداً حتى خرج المناوئـون له عن حـدود الشرف فأذاعوا وسط القرية أن رصيد الرجل من الرجولة ضئيل ، وأن موت أولاده قبل الفطام راجع الى كونهم جاؤا بغير ما يرضي الله ، ثم زاد الأمر سوءاً ما ارتجزه الشيوخ شعراً ضده :

عبد الحافظ يا خميس   يا اللي فعلك فعل ابليس

هاجر وامش

إلى آخر تلك القصيدة[٦] ، والتي حملت في مضمونها تهديداً صريحاً بأنهم سوف يربطونه مقلوباً مطين الرأس فوق جحش ، ومن المؤسف أن

القصيـدة خرجت عن واجبهـا كإنـذار فتهشمت فوق ألسنـة الأطفال والرعاع ، الذين أدمنوا استقباله ـ أو وداعه ـ بها مختلطة أحياناً بالحصى والطوب .

ثم تناقل الرواة بعد ذلك ـ أو أثناء ذلك ـ رواية ضعيفة مفادها أن أحد الأعداء أوعز الى كلب مسعور أن يهاجم ساق أبي نعمان ، فتخلى الرجل عن صبره وتصارع مع الكلب جسداً لجسد ، والشعب حولهما مجتمـع ليضحك ويسخـر مسروراً مشجعـاً هائصـاً حتى سقط الاثنان فاقدي الوعي .

ونقطة الضعف في الرواية ترجع الى أن هذه المقولة لم تـظهر إلا في السنوات الأخيرة ، إذ من الثابت أن عبد الحافظ خميس عقره كلب ، كما عقره من قبل أكثر من كلب ، دون إيعاز من أحد ، والثابت أيضاً أن أبا نعمان ظل طويلاً بعد إصابته يهذي ثم سعر وكلب ، وأصبح خطراً على الناس تعميماً وعلى أهل الدرب تخصيصاً ، فتخـوف المواطنـون منه ، واحتاطوا ، وظل الرجل ينبح في ليال كثيرة مما هيج إحسـاس العامـة بالخطر وأطار أمنهم ، ثم ترامت أنباء أن بعض الفتية يتربصون بـه ، فهلعت أم نعمان (والتي فيها يعتقـد لم تكن قد أنجبت نعمـان بعد) وخافت ، وحملت زوجها المصاب بليل لتنجو به وبنفسها (رغم تأكيد الأهـل لها بـالإطمئنـان) ، وظلت تشـرخ بـه المـزارع والـطرق حتى أرهقت ، ولم تجـد بدأً من أن تجلس لتستـريح الى كميـة من البـوص الناشف ، هذا البوص الذي صنعت منه عشتها فيها بعد ، وفي هـذه البقعة وربما في نفس الليلة مات عبد الحافظ خميس .

ومن الغريب أن القرية التي أحلت دمه ، هي نفسها القرية التي خرجت وراءه عن بكرة أبيها ،ـ فقد صادف يوم دفن أبي نعمان . . . . يوم الجمعة اليتيمة ، وهناك اعتقاد بين العامة أن من يلقى ربه في يوم كذلك فهو ـ لا غرو ـ وبالحتم ـ مبارك ، فصلوا على أبي نعمان ظهر الجمعة اليتيمة في مسجد الأمير سنان الذي بناه الشريف حصن بن ثعلب صاحب عمرو بن العاص ، وقيل أن النعش ظل يدور في أنحاء القرية رافضاً التوجه الى منطقة الدفن ، وحاول الشيوخ أن يتوسلوا اليه كي يتوجه الى طريق القبر ، واضطروا أن يحضروا للنعش ـ استرضاء ـ الطبل والزمر ، وزغردت النسوة ليمسي اليوم مشهوداً ، فقد جر النعش المشيعين خلفه ، ليس فقط في ديروط الشريف ، بل وإلى القرى المجاورة ، ولهث الرجال وتصببوا عرقاً ، واتصل ذوو الشأن بالمأمور الذي جاء بعسكره محاولاً أن يدفن الجسد الكريم عنوة ، إلا أن النعش ظل مقاوماً ساحباً خلفه الجماهير المنشدة الداعية المطبلة المزغردة ، وكادت تقع اضطرابات مؤسفة بين أهل النعش وبين بعض المعترضين لولا حكمة المسنين وذوي التجارب ، ولولا أن غربت الشمس ، ولولا أن أراق النعش الرضا فوق رؤوس السعداء اللاهثين المرهقين ، حيث رضي عبد الحافظ خميس ـ في النهاية ـ أن يدفع حامليه ومشيعيه الى المقبرة ، ولم تنم القرية ليلتها إذ جمعوا أموالاً واجتمع مجلس العرب في ساحة الأمير سنان ليخططوا لبناء مقام يليق بصاحب الكرامة ، وخلال أيام لم تزد على الأربعة (ستة أيام في مقولة للحاج محمد حسنين) أتموا المقام وبيضوه ورفعوا شاهده الى خمسة أمتار ، ورسموا على الجدران

خيولاً وسيوفاً ومراكب وجملاً ، جملاً ضخماً كان يسمع صوته على مسافة سبعة مدافن ، ثم اجتمعت القرية كي تنقل جدث وليها الى مكانه الجديد الأنيق المفروش بالرمل الذي استجلب من الجبل الشرقي ، غير أن الأمر سار في غير ما ترضاه قريتي ، والتي حاولت من زمن أن تتوسع في عدد أوليائها الذي لم يزد على ثمانية ، فقد تبينت القرية أن بعض الوحوش[٧] قد نبشت فوهة القبر ، وازداد الذعر حينما فوجئوا بالكفن ممزقاً وعظام الشيخ الجليل ذات اللحم النفاذ الرائحة تملأ ساحة القبر ، واستعاذ الناس بالله واضطربوا ، وتركوا القبر القديم والمقام الجديد خاويين .

مؤكد ـ بعد ذلك ـ أن نعمان ولد فور كارثة دفن والده الشيخ الكريم ، ولولا ذلك الوحش الذي استباح المكان لتغيرت أمور كثيرة ، (دون رد على الدعوى التي أثيرت ساخرة من هذا الأمر) ، فمما لا شك فيه أيضاً أن رجلاً ـ ميتاً ـ ثبتت كرامته كان جديراً أن يقدسه العامة ، وأن يهتم أهل القرية بنسله ، وأن يكرموهما ما قدروا على الإكرام ، لكن كرامة الشيخ عبد الحافظ لم تقاوم الزمن سوى أيام قليلة ، وبالتالي فإن نعمان حينما وفد الى الدنيا ، وفد على شاطىء متآكل في عشة من القش ، والرياح تزمجر راسمة للمولود عالماً جديداً مغايراً ، ومياه بحر يوسف تتموج حاملة البشرى للأرض والمزارع ، غير ملقية بالاً بتلك الارهاضات التي كانت تغمر الدنيا وفي ضميرها بوادر الحرب العالمية الثانية ، حيث يقال أنه ـ وفي تلك الأيام بالذات ـ بدأ موسوليني يدك ببوارجه شواطىء الحبشة .

(١) روي عن الحاج مستجاب أنه ـ أثناء عودته من الحقل ـ في ظهر يوم جمعة صائف : عثر على قطعة مستديرة من المعدن البراق ، فالتقطها حامداً الله على مكافأته ، غير أن القطعة المعدنية كان بها سلكان رفيعان يتقافزان أسفل بنورتها ، فوجف قلب الرجل المؤمن ، وازداد القلب وجلاً حينما قربها من أذنه ، لقد كان هذا الشيء الشيطاني يدق ، فألقى الشيطان الحديدي أرضاً ، واستعاذ بالله ، ثم دكه بعكازته حتى اطمأن الى تحطيمه تماماً ـ وهي حكاية متأخرة مختلفة من حكاية ساعة شارلمان وهارون الرشيد .

(٢) بسبب كثرة الأحداث التي أطلق عليها البعض (الموجة) لجأت الى أكداس من دفاتر مواليد البلد المحفوظة بالمديرية ، وتبين لنا الآتي : نعمان عبد الحافظ خميس مقيد بدفاتر مواليد ١٩١٠ و١٩٢٩ و١٩٢٨ ، وفي محاولة للإستقصاء اتضح أن أم نعمان أنجبت أربعة : مات نعمان الأول فأنجبت الثاني وأسمته (نعمان) ، ومات الثاني فأنجبت الثالث وأسمته (نعمان) ، وأنجبت الرابع وأسمته (نعمان) ، إعتقاداً منها بأن الثالث حتماً سيموت ، لكن (النعمانين) عاشا فترة ثم مات أحدهما ، وقد عجزنا عن التوصل الى تحديد الميت فيهما ، ولقد نتج عن ذلك أن نعمان عبد الحافظ طلب للقرعة العسكرية عام ١٩٢٠ (وتأشر أمامه بالوفاة) وعام ١٩٤٩ ، (واتضح فيها أن نعمان مجرد صبي) ـ وعام ١٩٦٢ وتبين أنه قد تجاوز الخامسة والثلاثين وأنه (لا يصلح بتاتاً للخدمة العسكرية لتجاوزه السن بغض النظر عن الأنيميا التي أجهدت قدراته وأصبح من الصعب تحديد سنه بشكل قاطع ، مقدم طبيب محمد حسن لبيب ـ رئيس القرعة العسكرية ـ إدارة الفرز ـ أسيوط ـ ٨ /١٩٦٢/٨) .

(٣) استبان لنا أن ثمة من يدعى الشيخ ربيع مرسي بلال ، عاش في أوائل القرن العشرين تحت حقبة سلم آل مرسي بلال ، ولم يكن شيخاً بالمعنى المفهوم ، إذ كان مجرد صبي توقف نموه وفقد القدرة على الحركة والكلام ، وقصد مرات من عقيمات وصاحبات حاجة ، فلما وضح أنه محدود الاستجابة هجر ، ومات دون معجزة تذكر .

(٤) بمراجعة كتاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعي عن ثورة ١٩١٩ لم يستدل على اسم عبد الحافظ خميس بين القتلى أو الجرحى سواء في ديروط أو في بلاد أخرى .

(٥) قيل أيضاً أنهم سرقوا حذاءه ، وهو قول مردود بعدم توفر أحذية في ذلك العصر .

(٦) القصيدة من ٤٩ بيتاً ، ويقال أن الشيخ راشد ـ وهو مرتل شهير ـ قد استباح لنفسه أبياتاً أنشدها في مناسبات عدة ، غير أن بعض أبياتها لا يزال يعامل معاملة الحكمة في كثير من النجوع المجاورة .

(٧) أشيع أن الذي فتك بجثمان الشيخ كان مجرد نمس ـ غير أن البعض يصفه دون رؤية ـ بأنه غول .

فصل في الطفولة والصبا

أرجح الرأي الذي يميل الى التعامل مع حياة نعمان من خلال كونها مساحة محاصرة ـ أو متصلة ـ بمساحات أخرى على امتداد أحقاب طويلة لأناس آخرين ، أم وأب وجدان وجدتان وأعمام وأخوال ، أن فصل مساحة نعمان عن حيوات الذين مضوا عنه أو معه يعد تعسفاً استخدمه بعض المناوئين له ، قاصدين عزل حياته تمهيداً للتقليل من شأنه . . . ثم تدميره .

فعلى ترعة بحر يوسف ، وفي نفس العشة التي ولدته أمه فيها ، ومن خلال الحركة الدءوب التي تقوم بها الأم وسط الحقول لتسويق بضاعتها : الملوحة وحلوى العسل الأسود والبلح الصائف ، كان يمكن لأي لص حقير أو ذئب هائم أو كلب ضال أن يطبق نظرية الفصل المشار اليها وينهي مسألة نعمان ليتحول الى مجرد رمة ـ أو بقايا رمة ـ تعبث فيها رياح البراري .

غير أن الأمر لم يكن على هذه الشاكلة ، فعم نعمان ـ الأكبر ـ ظل فترة من حياته يحصل على عيشه من ارتياد الأذكار وتجمعات تنظيمات إحياء أسبوع وخمسة عشر وأربعين الموتى ، وعم نعمان الأوسط ـ ذلك الذي بقرت بطنه جاموسة هائمة ـ كان متخصصاً في نقل طلع ذكور

النخيل وتلقيح الأناث به ، وعم نعمان الثالث ـ وهو الأصغر ـ عمل في مبدأ حياته مشذباً لحوافر البهائم ، ثم أنهى حياته سالباً لأكفان الموتى ، كما أن لأخواله مجدهم الشخصي الذي لا يتجرأ مضلل على العبث به ، وإن كانت المعلومات التي بين أيدينا لا تمنحنا اليقين بأن لنعمان أخوالاً أصلاً ، وكان جد نعمان من ناحية والدته أخصائي إخصاء جديان ، أما خميس ـ جد نعمان من ناحية أبيه ـ فقد ورد إلينا أنه قضى نحبه على فراشه المدسوس خلف شجرة توت في الطريق الى سويقة القرية .

وقد تضافرت كل هذه العروق على تغذية وجدان نعمان ، بحر يوسف أسفل العشة يخر بالمياه والأشجار الباسقة توشوش بالنسيم ومساحة شاسعة من الحقول بالخضرة ، فإذا أضفت للمنظر قليلاً من العصافير في الجو وقليلاً من السحالي في الأرض ، ومزجت كل ذلك بروافد ما ورثه نعمان من أهله أصلاً ، لوضحت المسائل ، فقد أشاع الذين لا يحبون نعمان أنه لم يتلق تعليماً منتظماً في طفولته ، في الوقت الذي كان يجب على هؤلاء المنظرين أن يسموا بنظرياتهم ، أن الكثيرين من أبناء المدرسين والضباط والموظفين والتجار والمحامين والسياسيين يقضون طفولتهم في أزمات تربوية هائلة التعقيد داخل الجدران المزركشة بصور الممثلات ، وأكبر تجربة يمكن لأهاليهم أن يضموها بسجل ذكريات الطفولة لا تزيد عن جروح سطحية بسبب سوء ركوب دراجة أو سقوط خلف ترام أو انهيار درابزين سلم ، إذ نادراً من تواتيه فرصة تسلق شجرة أو حتى معابثة قطة ، أما نعمان ـ ذلك الذي كان نصيبه من التعليم المدرسي صفراً : أجاد العوم في الخامسة والغطس في السابعة

وشهور ، وفي الثامنة من عمره كـان يمكنه أن يتسلل ليـلاً الى حقول الطماطم لينتزع ثمارها ، وفي التاسعة استولى على جدي صغير وذبحه بصفيحة صدئة، وتمكن من تسلق نصف نخلة ، وحطم جمجمة كلب ميت ، وأشعل النار في البوص وغابة نبات ذيـل القط ، وفي الثامنـة ـ أيضاً ـ صاد عصفـورين بحجر واحـد ، وعبث في مدخـل قناة ري فأغرق عشرين فداناً وخمسة قراريط ، وقطع الطريق على صبية ترعى الماعز وسلبها ملء الكفين جميزاً ، وتسبب في سقوط ناقة هوى بها جرف في بحر يوسف ، ورجم كل السيارات ـ القليلة ـ التي مرت على الطريق القريب ، وتابع طائرة محلقة وظل ـ بصوت عال ـ يسب أم سائقها حتى هوى[1] ـ نعمان ـ في شرخ أرض شراقي ، وفي التاسعة كـان يمكنه أن يخصي ذكور الماعز كي لا تستنفد الجديان حيويتها وسمنتها في العلاقات المريبة ، وفي العاشرة نجح في تسلق نخلة كاملة ، وحفر فخاً في الطريق وغطاه بالأعشاب والتراب ليستمتع بسقوط السابلة ، وفي العاشرة نقل كلاماً أدى الى ثلاث مشاجرات أسفرت عن بعض الكوارث الصغيرة ، وأجاد لعب النحلة والحجلة وأول كريه أنه استلب رجلاً ملابسه أثناء استبراده في الترعة ، وتعرف على تجار الملوحة في عزبة شلقامي وديروط المحطة وعزبة الجحوش ، وعاون في استدراج غريب الى وكر في منعطف حيث قتل .

ومن المعتقد أن أم نعمان كانت تناشده ألا يخاطر بنفسه ، هو ولدها الوحيد وعائلها فيما بعد ، ثم لم تلبث أن تنبهت ـ فـور ما أشيـع عن اشتراك نعمان في استدراج الغرباء للأوكار ـ أن الولد يتغيب كثيراً عن

العشة ، كما أن معدل انتاجه اليومي من حبات الطماطم وأكواز الذرة وصغار السمك قد تناقص بشكل ملحوظ ، وقد حاولت أن تستجوبه لكن نعمان ـ على غير عادته ـ تجرأ على أمه ، بل وتهجم عليها بألفاظ مشينة أخسب أنها دست عليه من غوغاء المنطقة ، وقد اضطرت أمه الى ضربه متجاوزة بذلك قواعد التربية الحديثة ، ثم حاولت أن تسترضيه نادمة ، لكن نعمان بدأ يأخذ جانباً من العشة ويتكور صامتاً ، ثم بدأ يميل الى النوم ، ثم أخذ يكمن كموناً طويلاً دونما إصغاء الى محاورات أمه أو انتباه الى حزنها .

حينئذٍ بدأ لأم نعمان أن المسألة لا يمكن السكوت عليها ، صحيح أن جسده ليس ساخناً ، وأن صمته قد أراح رأسها وجنبها قلبة الدماغ ، إلا أن المرأة لم تحتمل هذا الصمت وهذا التكور وهذا الكمون .

ونعتقد أن أم نعمان قد ابتاعت بخوراً وحرقته داخل العشة ، وحملت الولد بين يديها عابرة به حول النار وفوقها مرتلة الأدعية ومنفثة ما قد يبعد الشياطين ، إن أذى قد حاق ـ حتماً ـ بالولد ، وأن عيون القرية ـ المقذاة ـ لا بد صوبت الحسد ضد نعمان بنشاطه وقدراته على إحضار (الخير) الكثير من المزارع الى العشة ، وقد نجحت أم نعمان في تحليل ما أصاب ابنها .

يقول البير كامو ـ أو أحد هؤلاء الناس ـ عندما تموت هذا العام فإن الموت سوف يتجنبك في العام القادم ، ولم تكن أم نعمان تهتم بأقوال البير كامو ، إذ لم تلبث أن حملت نعمان فوق كتفها واخترقت الأحراش

والقنوات والبقع الطينية ، تدوس الشوك والقتاد والأذى والعاقـول ، ونعمان ـ فوق كتفهـا ـ صامت سـاكن ، وبين وقت وآخـر تصرخ في حنان : نعمان ، لكن الولد لا يرد ، يتأوه ، يتأوه فقط ، وظلت تمخر عباب الأرض حتى وصلت الى كوبري المعاهـدة ، ونعمان لا يـرد ، فـظلت تقـاوم الإعيـاء حتى وصلت الى مبنى المستشفى الأميـري ذي الملمس الاسمنتي البارد ، وأنزلت نعمان وجلست ثم أنامته على فخذها مستنـدة الى حائط المستشفى ، دقـائق لا تزيـد حينها هـاجمهـا بـواب المستشفى ، وكأن نعمان آثر الرد بنفسه ، فقد تبرز الولد وأغرق أمه في أشياء كثيرة أقلها الحرج فازدادت ثورة بواب المستشفى ، وأمرهـا بأن تتجه بإبنها ـ القذر ـ الى الباب الآخر ، وأنه ممنوع ـ يا ناس ـ الجلوس في هذا المكان ، وصرخ أثناء ثورته بأن هؤلاء الملاعـين ـ الذين منهم أم نعمان ـ سوف يخربون بيتـه ، وأن حكيمباش المستشفى سـوف يصل الآن ، وظل بواب المستشفى يرغي ويزبد طالباً من أم نعمان بالإسراع ـ الله يخرب بيوتكم ، لكن أم نعمان ـ ولأنها أم نعمان ـ لم تسكت ، إذ سبت في صوت عظيم مجموعة الوظائف والمناصب التي يتضمنها الهيكل التنظيمي للمستشفى بدءاً من الحكيمباشي حتى البواب ، وتجمع الناس ودخلوا في الحكاية متعاطفين مع رجل المستشفى ، وأوضحت أم نعمان للقوم أنها تستريح وستمضي ، وقامت ـ ضيقة الصدر ـ فحملت بطلنا فوق كتفها ، وعبرت كوبري المعاهدة حزينة واجفة ، مرهقة ، نعمان ، لكن نعمان ـ يظل ـ لا يرد ، فترتبك أم نعمان وتزداد تشبثاً به ، تخترق الأحراش والبراري وأكوام السباخ ومستعمرات الطوابين والمستنقعات ،

ملهوفة الخاطر مكسورة الظهر ، نعمان ، ويظل نعمان لا يرد ، وأقدامها تنغرز في الأحجار والشوك والطين ، حتى وصلت به الى القرية . . .

وعرجت مباشرة في دروب القرية الى حيث الشيخ عبد الودود ، سر القرية وحافظها وملجم شياطينها ومخفف آلامها ، وما كادت تدخل حتى وافاها الرجل مبسملاً محوقلاً :

ـ خير . . .

ـ افتح لنا الكتاب يا سيدنا . .

ومد الشيخ عبد الودود يده الساحرة الى رأس نعمان الغارق في السكوت والصمت ، والآيات المقدسة تنساب وتهوم وتملأ الغرفة ، واقترب من نعمان أكثر ، وظلت أنفاسه المضمخة بالآيات تزحف حول رأس الولد ورقبته وعنقه وجسده ، ثم أحضر كتابه العظيم المجلد بكستور قديم وظل يقلب ويقرأ ويمسح ويستعيذ بالخالق . . .

ثم . . . وكأن الشيخ عبد الودود قد أمسك بأول الخيط ، صمت قليلاً وصرخ صرخته الداوية . وتناول ريشته وأوراقه وبدأ يخط باللون الزفر ذي الرائحة النافذة ، وأشعل النار وتناول في رحمة وشموخ جسد نعمان ، وملأ الدخان المكان فاغرورقت العيون ، بسم الله الرحمن الرحيم ، يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس [٢] ، قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً[٣] ، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم[٤] ، قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين [٥] ، وإن

مسه الشر فيئوس قنوط[٦] .

ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين[٧] ، صدق الله العظيم ، هو الشافي وهو البر التواب ، ريال يا حاجة !! ، ريال ؟ وقبل أن تجيبه أمرها أن تحمل ابنها وتخطو به فوق بقايا النار سبع خطوات ، وهنا ، وفي هذه اللحظة كح نعمان ، كح نعمان وصرخ ، صرخة هزيلة لكنها مسموعة ، العفريت يخرج من الجسد . والشياطين تفارق النخاع ، الجن تبارح نعمان العظيم ، ودس الشيخ عبد الودود الحجاب تحت إبط نعمان ، واستند على الحائط . وظل متمعناً . . . أو منتظراً . . .

وإنّي هنا أنوّه بهذا الجهد الخارق الذي لم تتوان أم نعمان في الوفاء به ، إن أشياء كثيرة ـ في حياتنا ـ تستحق التضحية ، من بينها ـ ولا غرو ـ نعمان . . .

ودفعت أم نعمان الريال . . .

وبدأت تطمئن على أن ابنها سوف يدخل عفياً قوياً مرحلة المراهقة .

---

(١) هناك رواية وثيقة لأسباب مطاردة نعمان للطائرات في الجو : إذ حاولت حداة خطف نعمان ـ في عامه الأول ـ أثناء استكانته داخل لفافته في بطن قناة جافة ، وقد أفزع الحداة الصراخ الرهيب الذي انطلق من أم نعمان فلم تتمكن من إتمام مهمتها ، وقد عانى نعمان من جروح دامية في صدغه الأيمن وذراعه الأيسر شهوراً طويلة ، وقد أهملنا هذا الحادث عمداً حيث ورد بشكل مشابه في كتاب الدكتور أحمد عكاشة عن ليونارد دافنشي .

(٢) سورة الانعام ـ الآية ١٢٨ .

(٣) سورة الكهف ـ الآية ٨٦ .

(٤) سورة الأنبياء ـ الآية ٦٩ .
(٥) سورة الحجر ـ الآية ٥٥ .
(٦) سورة فصلت ـ الآية ٤٩ .
(٧) سورة الزخرف ـ الآية ٣٦ .

فصل في الهلاك

لا بد الآن من التوقف أمام الفرية ـ أي الأكذوبة ـ التي اطلقها مخادع حول نعمان ـ متهماً ـ إياي ـ أنني توطأت في إزاحة أبي نعمان من الوجود ، كي أتيح للابن فرصة أن يشب يتيماً ، تمهيداً لضمه الى قائمة ذوي الخوارق والمعجزات ، ووثق المخادع فريته البراقة فأورد مجموعة من أسماء مشهوري اليتامى الذين أحدثوا تغييراً في مسار الدنيا ، وتجرأ ـ هذا المخادع ـ ورصد حالة لأحدهم جاء دون أب أصلاً .

ولسنا نزعم أننا قادرون على الولوج في عالم الذين تسبغ عليهم السماء حمايتها ـ بجدارة يمكن أن تحرز بها نصراً ، غير أن ملاحظة مفاجئة من صديق[1] يتمتع بذكاء طارىء يتهمنا أن معظمنا يتامى حتى مع وجود الأب ، وأن الآباء ـ على العموم ودون التعرض لاستثناءات ـ يندرجون تحت بند العوائق ، ومحظور عليك أن تقول لهم ـ مع ذلك ـ أف .

وعندما أبسط فرية المخادع وملاحظة ذي الذكاء الطارىء ـ دون اقتناع كامل بهما ، آمل أن يكون واضحاً : أن إخلاء طريق نعمان من الأب ـ مبكراً ـ أيسر لي من إنمائه في كنف رجل سوف أجبر نعمان ـ حتماً ـ على إزالته بوسيلة تميل السماء إلى إدانتها ، كفيل ـ أنا ـ بحماية نعمان من الذئاب والمشايخ والحدآت والمرضى والسياسيين والثعابين

والثقافة والأشباح والمدرسين ورجال الليل والبحر اليوسفي والعقارب ، لكني قد أفشل في حمايته من أب على درجة لا بأس بها من الطيبة والصبر والخلق والنبل والمداهنة .

غير أن الأمر ـ أمر نعمان ـ كان يدبر كما يدبر أمر الريح والشر والانجاب والسحاب والشرف والخوف والبركة والشمس والخير والنجوم والحب والقمر والشجاعة .

ففي بداية فيضان البحر اليوسفي[٢] : بدأت أم نعمان تعقد صفقات توريد الملوحة للنساء الموسرات صاحبات المزاج الحارق ، تؤثرهن بمخزون الرشال[٣] القديم الذي يمكن لك أن تشم رائحته اللاذعة النفاذة على مسافة عشرين قصبة ، وقد حدث أن واحدة من موسرات بحرى البلد ، وبعد مباحثات استغرقت خمس صفقات ، أفرغت رغبتها الخيرة في أذن أم نعمان : أن تأذن لها في اقتناء نعمان .

ومزعج جداً أن يستدرج نعمان كي يبارح الحقول والشجر وتدفق الماء ومطاردة العصافير والسحالى ، ليعيش في قرية مزدحمة بالحوائط والشجار والنميمة والخداع والأفراح وتقطير العنب والعلاقات السرية ، إن ذلك شديد الوطأة على نفسي وإخلال جسيم بتوازي الخطوط التي تمنيت لو عاش فيها نعمان ، حتى لو كانت الموسرة هي السيدة الكريمة العظيمة فوقية ذات الأصل والمجد والأرض والكلاب والعبدين والحسب والعتاد والخدم والسطوة ، والتي قتل أبوها في حادثة مشهورة ثم مات زوجها الثاني ، وهلك الثالث بين فخذي امرأة ملتاثة ، ولم يرد خبر عن

زوجها الأول حتى الآن[٤] ، ولم تصب السيدة فوقية بالقنوط ، ففتحت بيتها الفخيم ليلاً لذوي الحيثيات والفضل والنجابة ينهلون من العلم والحديث والاسترخاء والطعام والأدب ، ويطرقون الآراء حول الناعسة ودياب وأبي نواس والدستور والانجليز والإمام الشافعي ومكرم عبيد ونجيب الريحاني .

ويعتقد أن أم نعمان شعرت بغبطة ملموسة حينما اصطحبت وحيدها لتسليمه للسيدة الكريمة بغية أن تقتنيه غسلت جسده بنصف مياه بحر يوسف وألبسته كل جلابيبه وعرجت به على بيت عيد الحلاق فشذب رأسه تاركاً قرن الشعر في مقدمة القراعة ، ذلك القرن الذي لن يقص إلا بعد ذبح جدي وفاء لنذر للشيخ الفرغل ثم حشت جيوبه ببلح وطعمية كطقس وداع لا بد أن تقوم به ، ثم قبلته مرات ثم توجهت به الى بيت السيدة الكريمة فوقية فوصلت في المساء .

وفي النهاية مثلت أم نعمان بإبنها بين يدي السيدة ، لم تمثل مباشرة بل وقفت طويلاً ـ ثم جلست طويلاً أيضاً ـ على عتبة القاعة المضاءة بأربع كلوبات ، وكانت السيدة فوقية بوجهها الصبوح وجسدها الممتلىء النضر تستمع في إغراق لما ثار بين الشيخ علي ـ فقيه القرية المتبحر ـ والشيخ أبو تسعة من قضايا ، فقد كان الأول يناقش الثاني ـ للمرة المائة ألف ـ في مغزى لقب (أبو تسعة) الذي أطلق عليه ، فقال أبو تسعة ـ للمرة المليون ـ أن أباه كان يتفاءل بما أولاه الله ـ عزّ وجلّ ـ لهذا الرقم من اهتمام ، فمن آياته ـ تعالى ـ الطاهرات :

١ ـ ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ ـ في سورة (الإسراء) .
٢ ـ ﴿ لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ ـ في سورة (الكهف) .
٣ ـ ﴿ لواحة للبشر عليها تسعة عشر ﴾ ـ في سورة (المدثر) .
٤ ـ ﴿ إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ﴾ ـ في سورة (ص) .

وأضاف الشيخ أبو تسعة أن أباه قد أنجب تسعة بنين وتسع أناث ، وهو شخصياً أنجب سبعة ويدعو الله أن يشمله ببركته ليقتدي بآياته فينجب سبعة ، فإن لم يتحكم فتسعة عشر ، فإن زاد فتسعة وتسعين .

فصرخ الشيخ علي محتداً في الشيخ أبو تسعة : إذن يا شيخ الأبالسة لماذا هربت مما قاله الله في سورة النمل ؟ قالت السيدة فوقية في استمتاع ـ للمرة المليون ـ: وما الذي ورد في سورة النمل يا شيخ علي ؟ . . . وقف الشيخ علي ـ فسقطت شلتة المقعد بين قدميه ـ وتلا : ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط يفدون في الأرض ﴾ . . . ! !

وفي تلك اللحظة الثمينة التي تعصب فيها الحاضرون للشيخ علي المنتصر مبدين كامل إعجابهم بذكائه ، لمحت السيدة فوقية نعماناً وأمه في مدخل القاعة ، فأشارت أن يمثلا بين يديها .

ولسنا نجادل فيما حدث بعد ذلك من أحداث : مدت السيدة فوقية يدها فلثمتها أم نعمان ، ومدت يدها الى الصبي نعمان فلم يلثمها رغم لكزات أمه في جنبه وظهره ، فضحكت السيدة في تواضع جليل

ومسحت بيدها الرقيقة على رأس نعمان المشدوه ، ثم تحركت أناملها حول قفاه وأذنيه وعادت الى الرأس فتلمست قرن الشعر ، وكل النجباء ـ احتراماً ـ صامتون ، وسألت نعمان عن اسمه فلم يجب ، وضحكت السيدة ، وعادت تسأله عن اسمه فأجابتها أم نعمان ، حينئذٍ طلبت السيدة الكريمة من أم نعمان أن تستريح ، فتراجعت الى الخلف وعادت فأقعت على أرض مدخل القاعة .

واستسلم نعمان لهذا الحذر المستشري في أذنيه ورأسه من أضواء الكلوبات وأنامل السيدة العظيمة ، ثم أشارت له أن يجلس قريباً منها ، فتطامن أكثر وانكمش بجوار ساقها اليسرى ، حيث دار الحديث بين القوم عن الموضوعات التالية :

أ ـ أسباب قتل موسى أقلاديوس وإلقاء جثته في ترعة الدير .

ب ـ أسباب تأخر اسلام عمر بن الخطاب .

جـ ـ سيرة راهبة بمدرسة سيدة الرسل ارتكبت إثماً مع طالبة ثرية .

د ـ ما انتهت اليه التحقيقات في قضية مقتل فخري .

هـ ـ الاعتقاد بأن أمين أبو علة يخفي العرقى الفاخر ولا يرسل اليهم سوى العرقى الاسيوطي أو الزبيب العادي ، ولا بد من إعادة تقييم علاقتهم به .

و ـ احتمالات التخلص من طبيب الوحدة المجمعة الذي يقترن اسمه ببعض الشبهات .

ز ـ صلح الحديبية .

ح ـ الناقة التي أنجبت ديكاً في قرية مجاورة .

ط ـ ارتفاع سعر التبن والطوب الأحمر وعروق الخشب .
ي ـ حديث موسع وبذيء عن أخبار أبي نواس وجنان الجارية .
ك ـ حكاية إخصاء أحد الحكام القدماء بيد عبيده .

وكان نعمان ـ على الأرض قد فقد التركيز ولم يعد قادراً على متابعة تحركات الشفاه والأعناق والعيون ، وكاد ينعس لولا أن الرجال يمرحون بصوت ضاج وبأيديهم أكواب تتلألأ ، وكانت أمه لا زالت مقرفصة في مدخل القاعة مبهورة فرحة داعية للقوم بالسلامة والخير ، حينما أشار حمدي الفرارجي لنعمان ، فلما لم يفهم الصبي الإشارة : هرع اليه الداعي وحمله بين يديه ورفعه حتى لامس وجه نعمان لهب الكلوب ، وضحك الرجال ، لكن حمدي الفرارجي ألقى بالوليد الى أحضان الشيخ أحمد محمدين سمسار فابريقة السكر، الذي قام وبسرعة ملتقطاً الجسد من الهواء غير مهتم بتلك الصرخة الفزعة التي انتابت أم نعمان وتحلق القوم في القاعة ، ونعمان جسد مطوح في الهواء لا يكاد يستقر بين ذراعين حتى يطوح به الى ذراعين ، فتتحرك الأجساد المنتشية بالشبع والثرثرة ، والمضمخة بالطيبة والكرم ، ليسعدهم نعمان في هذه اللحظات النادرة ، يطير في جو القاعة لتتلقفه الأيدي الحنون وتضمه أفواه ذات شوارب ، والسيدة الكريمة تضحك وتضحك حتى تدمع عيونها الرحيمة ، وصراخ أم نعمان مكتوم أو عال لكنه يثير المتعة أكثر : لا تخافي يا مجنونة ، ويظل السقف يعلو وينخفض ، وهبو الكلوبات يبعد ويقترب ، وجسد نعمان يفرفط لكن الضجة السعيدة تظل مستمتعة بهذه الدبدبات العظيمة، والكلام البذيء يتناثر في جو القاعة الصاخبة

صانعاً هالة من الإغراق في المتعة ، والسيدة فوقية تتحرك في النهاية ظالبة من القوم الاكتفاء ، فلا يسمع أحد ولا تنقطع الضحكات والتعليقات والتطويحات ، حتى يرهق الشيخ علي الفرارجي ثم محمود كاتب السوق ثم محمود آخر كاتب السلخانة ثم أبو تسعة ثم الشيخ أحمد ناظر المدرسة(٥) ثم محمود ثالث كاتب الوحدة المجمعة ثم الشيخ راشد (وهو أعمى) ثم أحمد آخر سمسار فابريقة السكر ، يرهقون ويهرعون الى المقاعد ويجرون آخر الضحكات وباقي التعليقات وذيوع المرح والسعادة ، ولا يبقى في القاعة متحرك سوى الثلاثة : السيدة فوقية غير مخفية انزعاجها المرح السعيد ، ونعمان غير مخف إنزعاجه الباكي الدامع ، وأم نعمان غير مخفية انزعاجها الضعيف الواهن والذي تسرب داخل دموعها وهي تمد ذراعيها لابنها منتحبة :

لو أبوك عايش يا ابني . .

ولم تكمل ، فإن أم نعمان لم تكن تدرك أنها اتفقت في هذه اللحظة ـ دون أن تدري ـ مع فرية ذلك المخادع الذي اتهمني بالتواطؤ في إزالة أبي نعمان مبكراً كي أضمه الى قائمة اليتامى ذوي الخوارق والمعجزات وانه لمن المؤسف أن أعلن أن أم نعمان ـ مع ذلك ـ رحلت الى عشتها في البراري ـ تاركة نعمان بين يدي السيدة فوقية : تتلمس بأناملها الجميلة قرن الشعر المنذورة حلاقته للشيخ الفرغل مقابل ذبح جدي ، والهدوء عاد الى القاعة فبدأ القوم يتناقشون في أسباب خروج العقاد(٦) على الوفد ، وانتابتهم موجة تجشؤ سعيدة مضمخة ببقايا مرح ، ونعمان ساكن هادىء مستكين بين ساقي السيدة ، ومحمود العيسوي ـ كان ـ منذ

ساعات قد التقى بأحمد ماهر باشا في البهو الفرعوني الفاصل بين مجلس النواب والشيوخ ، وأطلق النار على رئيس الوزراء ليسقط مضرجاً في الدم ، وقبل دقائق من عزمه اعلان الحرب على دول المحور ، وبعده بساعات أمرت السيدة فوقية أن يحمـل نعمان عبـد الحافظ خميس الى جناحها العلوي ، فقد كانت السيدة الجليلة تميل إلى إسباغ رحمة أخرى وعطف آخر على الجسد النبيل .

---

(١) ينبع رأي صديقنا ذي الذكاء الطارىء من وظيفته التي كان يمارسها في جهاز له مصروفات سرية ، وقد استقال صديقنا هذا وعاد الى مسقط رأسه فاشترى منزلاً وزوجة بأبنائها وسبعة فدادين ونصف ترعة .

(٢) تظهر بوادر الفيضان فور حصد القمح ثم تلون البلح وانتشار جرب الجمال والاستعداد لعمل الكشك وتخزين التبن وتشغيل الفواخير وتجول باعة الشبت وتقافز ذكور البهائم على الاناث .

(٣) الرشال : نوع من السمك المملح المخزون ـ وهو أكبر أحجام الفسيخ .

(٤) يروى أن الزوج الأول للسيدة الجليلة كممت الشياطين فمه لحظة اكتشافه أموراً فاضحة في بيته ، وأنه يقيم في عزلة منفرداً دون مخالطة لأحد ، ورواية أخرى أنه قتل بيد الزوج الثالث ، كما أن أخباراً متناقلة تشير الى سياحته في بلاد الله مرتدياً الخيش ، وكلها أقوال لا دليل على صحتها .

(٥) يمت الشيخ أحمد ـ الناظر بصلة قربى لنعمان ، ومن المحتمل أن ندخر للمذكور فصلاً مستقلاً .

(٦) عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) أحد كبار المفكرين المصريين في الستين عاماً الأولى من القرن العشرين ، عاش دون زواج وعمل فترة ـ حتى عام ١٩٣٥ داعياً لحزب الوفد ومدافعاً عن قضاياه ، ثم خرج على الوفد وظل يناوئه دون أسباب مؤكدة .

فصل من أجل
السيدة الجليلة والجميلة أيضاً . !

تتكون السيدة الجليلة ـ والجميلة أيضاً ، تلك التي قررت أن تقتني نعمان عبد الحافظ خميس في بيتها الفخيم : من أنف وشفتين وعينين وحاجبين وخدين ورقبة ، ثم ، صدر وثديين وسرة وفخذين ، وهي تكوينات نادراً ما تتوافر مجتمعة أو مكتملة في نساء قريتنا ، اللاتي تتهدل تفاصيلهن بسبب تقلبات الجو وعوامل التعرية والحرارة والأطفال والطين والروث والبرد والرجال .

ومن المعتقد أن ثمة أفراداً ـ قليلين ـ قد حاقت بهم بعض النهايات المتعسفة عقب اكتشافهم للفروق بين تكوينات جسد السيدة الجليلة وتكوينات أجساد الأخريات ، بالطبع لا أقصد ما أثاره جيد عبد النور[١] أثناء اختفائه لديهم عن عيون الانجليز في العشرينات ، أو ما رواه سعيد الأسود صاحب الأب عبد القدوس[٢] راهب الدير المحرق الشهير ، أو ما نقل عن تاجر عسل أسود وجد مقتولاً في أعقاب هلاك الزوج الثاني للسيدة الجليلة ، إذ أن ما رددوه قد يكون مبالغاً فيه ، حتى لو كانوا قد اتفقوا جميعاً على أن السيدة الجليلة كانت تسترخي داخل حمام لبن أو تنام على بطنها عارية في شمس بشنس ، أو تجازف بزيارة المقابر في الظلام ، أو تستغرق في الرقص على أنغام

عازف ربابة غجري أصيب بشيخوخة مبكـرة واقتعده مـرض غير معروف في نصفه الأسفل وأقام فترة بين خدمها .

عـلى أن ذلك كله ـ وخلال أحقاب التبديل والتغيير والانحسار والانفراج ـ منحنا هذا الجسد الانساني الرائع القادر دائماً على عمل الخير ، والذي ـ هذا الجسد الأخير ـ امتدت أنامله لتعبث في قرن شعر نعمان عبد الحافظ المنذورة حلاقته للشيخ الفرغل مقابل ذبح جدي على عتبة المقام .

وقد يعوزنا الكثير من التدقيق للالمام المحايد بما حدث بين سيدتنا الجليلة ـ والجميلة أيضاً ـ ونعمان عبد الحافظ خميس في تلك الليلة التي بدأت بالحديث عن خروج العقاد على الوفد وانتهت بتقـاذف النجباء المتسامرين جسد نعمان ظرفاً وسمراً وانتشاء .

وباستبعاد ما رواه المرحوم ثابت عبد الرحمن ـ قاصداً إثارة الريبة من خلال ما حـدث ، وبالتجـاوز عما جـاء على لسـان الشيخ راشـد بخصوص هذا الأمر ، وبإدراكنـا المتأني رغم قصـور إدراك الرواة الذين تركتهم السيدة الجليلة في القاعة مزمعين الرحيل آخر الليل ، وبإصرارنا المركز والمكثف على كشف أي غموض يجابه حياة نعمان ، نجد لزاماً علينا أن نضع أيدينا على الحادث دون تخوف أو وجل .

نعمان نفسه ـ رغم توجسه وارتياعه ـ شعر بالسكينة المخدرة تنثال دفئاً من كف السيدة الجليلة على قرعته المحلوقة دون قرن الشعر . وعلى سلالم الرخام الذي استجاب من بلاد المرمر أيام أن كان والد

السيدة الجليلة نائباً وفدياً في مجلس النواب : كاد نعمان أن يحزن ـ ولأول مرة منذ ساعة قرار السيدة باقتنائه ، توقف في الدرجة العشرين فضحكت السيدة وأعادت كفها فوق دماغ نعمان ، وفي الدرجة الخامسة والعشرين ـ والتي قتل فوقها فيما يقال والد السيدة الجليلة منذ أعوام ـ توقف نعمان للمرة الثانية فازدادت السيدة الجليلة فرحاً ، وأهابت به أن يسعد ، غير أن نعمان أحس بأن العالم ضيق ، تنبه لأول مرة لخلو العالم من أشجار السنط ومياه بحر يوسف وانثناءات الطرق والشواطيء وانحناءات القنوات ، لكن كف السيدة الجليلة تركت الدماغ المحلوقة ونزلت ربع شبر الى رقبة نعمان لتصنع عامل ضغط على دفع جسد الصبي ، فاهتز نعمان وازداد حروناً ، وداهمه إحساس الوحدة ، وافتقد أمه ، بل وافتقد أباه ، يتيم نعمان لكن سيدة جليلة تضغط على رقبته ليصعد الدرجات العشر الباقية وأذعن الولد وخطا ، فازدادت السيدة مرحاً .

في جناح السيدة الجليلة وقف نعمان ، نمنمات خشب وإطارات ذهبية لصور رجال عليهم نياشين وشوارب ، أرض مفروشة بالصوف الملون ، لا اثار لأواني الفخار والكوانين والملابس الشيت وصفائح الملوحة وحصيرة بوص السمار ، كل شيء مزخرف بأحمر دموي وأصفر جبلي وأخضر زرعي وأزرق سماوي ، وظلت السيدة الجليلة تتحرك في الجناح داعية نعمان أن يسير أمامها ، وكلما سار نعمان خطوة ضحكت السيدة وامتدت يدها تحاول أن تزيل من الصبي إجفاله .

السيدة فتحت بعد ذلك باباً ومرقت منه ثم عادت ، تجولت في الجناح وفتحت باباً آخر مرقت منه ثم عادت ، ثم وقفت أمام نعمان ورفعته بين يديها وأوقفته على أريكة وظلت تتمعن في وجهه ، وارتبك الصبي غير أن لحظة سكون داهمته فمال الى الثبات ، بل وبدأت عيونه الثعلبية تتسع وتتيح للصورة كلها أن تقتحم وجدانه .

وعندما مدت السيدة الى نعمان يديها تجاوب معها ومد يديه ، وكادت السيدة أن تعاود الضحك ، لكن نعمان وقف صبياً شامخاً وقدماه تغوصان في حشية الأريكة المزدانة بزهور ، ومدت السيدة يدها الى وجه نعمان فانحرفت عيناه نحو نور « الكلوب » المتوهج الذي يفح بالغربة والغرابة والاستغراب ، وعادت السيدة للتجول واقتحام الأبواب والعودة الى نعمان ، ثم لم تلبث أن جذبت نعمان في رفق وسحبته الى الحمام .

حمام السيدة الجليلة - والجميلة أيضاً - صممه راهب إيطالي[٣] قيل أنه يحفظ القرآن الكريم ، وقد ظهر ذلك جلياً في زوايا التقاء زخارف أركان الحمام بالسقف ، حيث تنعقد أقواس ذات لون أرجواني مع قوس رفيع بنفسجي مكونة أنصاف دوائر متداخلة حتى تلامس شرائح زجاج النوافذ العليا ، وقد تساقطت أجزاء من الحائط الأيمن وانشرخت شريحتان زجاجيتان يوم الواقعة الأولى لطعن الزوج الثالث للسيدة الجليلة بحربة في كتفه ، ثم انخلع الباب الأوسط وتحطم الزجاج المقابل ليلة خروج بعض الضيوف عن الوقار المفترض اتقاذفوا بالمقاعد وتضاربوا بأكواب الزجاج ، ولم تحدث آثار جانبية

ذات خطر سوى تمزق جمجمة عبد ربه الذي قضى زمناً خادماً لسيدة الدار .

وعندما لمست أقدام نعمان بلاط الحمام أحس بقشعريرة ناعمة تخترق الجلد الخشن وتسري في النخاع بأسرع من البلهارسيا ، لكن السيدة كانت لا تزال منتشية مستمتعة بكل ما يحدث لنعمان ، وكانت أناملها لا تترك قرن الشعر إلا لتعود لرقبة الصبي ، ونعمان مستأنساً الأمن بدأ يطيعها مطمئناً لأناملها ، تلك التي امتدت الى جلباب نعمان فنفضته عنه ضاحكة ليظهر الجسد الصغير الرمادي المليء بندوب الأغصان والحفر والحصى ، وابتسامة السيدة الجليلة ـ والجميلة أيضاً ـ تحتضنه كما يحتضن العش المبطن بناعم الريش فرخ الغراب ، ولم تكن تعتقد ـ حتى هذه اللحظة ـ أن نعمان يرتدي جلبابه على اللحم ، ومن المضحك أن نعمان أسرع الى جلبابه محاولاً استرداده مما أضحك السيدة الجليلة مرة أخرى ، لكنه نسي أمر الجلباب الخائف على فقده حينما داهمه شلالاً من الماء المتدفق من السقف ، فزع نعمان أو صرخ ، ضحكت السيدة الجليلة أو صمتت ، غير أن الماء القادم ـ من مكان آخر لا علاقة له ببحر يوسف ـ انهمر فوق نعمان ، ويا لها من لذة متدفقة في الجسد والدماغ المحلوقة وقرن الشعر المشرئب حينما انتعش نعمان وسط هالات الصابون الأبيض الذي تفوق رائحته أزهار القريللا (٤) .

لأول مرة يخرج نعمان من مياه فيتلقفه بشكير كالقطيفة ، حتى أن الولد كاد ينعس في حشاياه ، وعندما عادت السيدة اليه كان قد وقف

وسط باحة الجناح يتملى بالنظر في جسده العاري المنعكس على سطح المرآة الضخمة ، وقد سقط البشكير تحت قدميه المشرختين ، لكنها - عندما عادت أيضاً - كانت (السيدة الجليلة) قد تخففت من أرديتها ، غلالة شفافة فقط كشفافية مياه رائقة ، وجسدها الأبيض يتماوج كما يتماوج القمر الكامن في الأعماق الصغيرة للبحر أسفل عشة البوص ، مكتنز أبيض مرتاح أسفل الغلالة جسد السيدة الجليلة ، ثم صفقت يديها ضاحكة طالبة من نعمان أن يروي لها شيئاً .

بالطبع لم يقص نعمان شيئاً عن مقتل أحمد ماهر باشا في البهو الفرعوني الفاصل بين مجلسي النواب والشيوخ أثناء توجهه لاعلان الحرب على أدولف هتلر وآخرين ، كما لم يقص شيئاً عن إغلاق دكان سليم الخربان ، أو حادث قيام الحاج زاهر بحلاقة شارب أحد عمالقة بحرى البلد بعد أن أسقطه واعتلى جسده في الشارع ، أوما أشيع في القرية من انتواء الشيخ أحمد عبد المجيد التخلص من العمامة والقفطان ليرتدي الجاكتة والطربوش تمهيداً للزواج من مصر ، ولا حتى حادث المرأة التي عاشرت قرداً في المقابر ، لكن نعمان - فيما يعتقد - وبتسهيلات من السيدة نفسها : قص شيئاً عن سرقة قلقاس ، وإشعال نار في قصب ، ووصف مفصل لعيني ثعلب أو ذئب ، وتورم في ساق أم نعمان ، وغرق قارب في بحر يوسف ، وأطول قرموط سمك رآه طول حياته .

وظلت السيدة الجليلة منتشية ، تدور حول نعمان مشجّعة حانية حتى

غمرهما صمت . .

الشيء الذي أدارته السيدة الجليلة في جناحها ليبعث موسيقى شجية لم ندرك كنهه حتى اليوم ، قيل أنه ماكينة غناء وقيل أنه مذياع . وقيل أنه تركيب سحري من تلك التركيبات التي تركها أبونا عبد القدوس في المنزل أثناء محاولاته المتكررة لإتاحة فرصة الإنجاب للسيدة الجليلة ، غير أن الموسيقى انهمرت حتى هزت جسد الصبي وأثارت نشوة في الجناح كله ، ثم لم تلبث السيدة الجليلة أن شاركت في الإيقاع الموسيقي بالتصفيق العذب ساحبة نعمان وسط الباحة المخملية ، وعيونها الواسعة الثرية تنغمض وتنفتح سعيدة يقظة ، فلم يلبث نعمان أن وقع تحت سطوة السحر الخلاب ، فارتفعت ذراعاه وتثنى وسطه العاري ، والسيدة تدور حوله وقد زمت شفتيها .

لم يعد ممكناً بعد ذلك رصد كل ما حدث ، أقوال عن ارتفاع ذروة الرقص حتى خلعت السيدة الجليلة رداءها الشفاف واحتضنت نعمان ممتزجة بجسده ليسيل العرق حولها محدثاً انكساراً في أضواء الكلوب ، أقوال عن بكاء تشنج للسيدة الجليلة الراكعة أسفل جسد نعمان ممرغة رأسها أسفل قدميه ، أقوال عن تقبيل متوحش شبق لكل قيراط في جسد الصبي ، أقوال عن جموح هائج فاتك ، أقوال عن لحظات هادئة ضمت فيها السيدة الجليلة جسد نعمان وأراحته فوق فخذيها طالبة منه النعاس .

والوحيد الذي يمكنه أن يساعدنا في استجلاء الأمر نفسه هو نعمان ،

لكن نعمان ـ كما اتهمه الشيخ ثـابت عبد الـرحمن ـ مصاب بـداء الصمت الذي أودى بحياة أبيه عبد الحافظ خميس ، وهو نفس الداء الذي جلل بالعار حياة أناس فضلاء ، فلم يستطيعوا التوصل الى التنسيق بين ما حدث وبين تلك الصورة الموجعة التي وجدوا عليها الصبي وهو يجري في أعقاب تلك الليلة عاريـاً صارخـاً في دروب القرية ، والكلاب تنبح خلفـه ، والناس يـطلون من وراء أبواب الفجر ، رافضين التنبه لما يحدث ، وذلك أن نعمان كان قد اخترق القرية كلها حتى وصل الى أول شجرة سنط على حـافة الجـرف ، وعندما لمست قدماه أشواك الشاطىء أحس بارتجافة العودة للأمن المطلق ، ذلك الذي أعاد نعمان الى متن حياته ، ثم لم يلبث نعمان أن ارتكز على جـذع الشجرة مصغيـاً الى صريـر الجنادب لتـرتخي أعضاؤه العارية .

---

(١) جيد عبد النور : أحد أبطال حادث مهاجمة القطار الانجليزي عام ١٩١٩ ، في ديروط ، انتزع منظاراً معظماً من يد زوجة القائد بوب لحظة الفتك به ، وظل مطارداً من الانجليز مختفياً في البيوت ، ثم ظهر في الخمسينات فقيراً رث الملابس ، وحاول أن يقتات من تربية الخنازير لكنه فشل ومات عام ١٩٥٧ .

(٢) يعد الأب عبد القدوس ـ الذي قتل على ظهر حمار في طريق ببلاو منذ عامين ـ المماثل الصعيدي لراسبوتين الروسي ، كان يتعامل في السحر والشعوذة مما أباح له سيطرة مذهلة على نساء الطبقات الغنية في الصعيد ويقال أن عمره تجاوز المائة والعشرين .

(٣) استضيف الراهب الإيطالي في منزل (والد) السيدة الجليلة في أعقاب مجلس الصلح الذي عقد بين آل معوض وآل القمص ، وفيه تم تسوية النزاع الذي أدى إلى هلاك خلق كثيرين ليس من بينهم هالك واحد من أسرة آل معوض أو آل القمص .

(٤) القريللا : نبات من الفصيلة الزنبقية ينمو بكثرة في حقول الصعيد الأوسط وسط البرسيم والقمح ، زهور صفراء ورائحته زكية ، ويأكله بعض القرويين .

فصل وسيط

لكي أكون عادلاً : أتحفظ في قبول المقولة المزعجة التي أطلقها بعض الأوغاد ضد سلسال خميس ـ ونعمان واحد منهم ـ، والتي فيما يعتقد تعني أن آل خميس قوم بلا بصيرة (عندما يعثرون على صرة من الذهب : يفكون الصرة القماش ويختلسونها تاركين الذهب [١] ، وإذا كان أحدهم يلجأ للمرابين ليحصل ـ في أيامهم هذه ـ على جوال كيماوي يسدد ثمنه أضعافاً وعلى أقساط ، ويقوم ببيعه في الحال مقابل نصف ثمنه الحقيقي كي يحصل على المعسل والشاي ، فإن ذلك ـ دون نفيه ـ لا يعني أكثر من كونهم أفراداً لم تتح لهم فرصة التهذيب بالشكل الذي أحدثه عبد العال حفناوي[٢] في أبناء عمومتهم .

ومن المؤسف أن نلجأ لهذا الأسلوب كي ننفي عن نعمان إتهامه المقلق بأنه أعمى القلب ، رافضين أن ننحاز مع أمه ضده فور انتهائه من الفصل السابق ، والذي عاد في نهايته مرتبكاً ـ عارياً ـ من قصر السيدة الجليلة ، والجميلة أيضاً .

وقطعاً فإن أم نعمان سوف تظل موضع مساءلة دهراً لهذا الرد الخشن الذي واجهت به وحيدها الواقف منهاراً على باب عشتها فجراً ، ردته بخشونة مثلما رد ابن أبي سفيان رسول ابن أبي طالب القادم من المدينة

داعياً أمير الشام للدخول في البيعة[٣] ، مصممة أن تعلن على رؤوس الحقول ـ وفي صوت واضح ملتاع ـ أنها بليت في زمانها مرتين : مرة بالزواج من عبد الحافظ خميس ، ومرة بالإنجاب من عبد الحافظ خميس ، متناسية أن نعمان ـ الواقف على مدخل العشة يرتعش ـ يقف أيضاً على أولى خطوات المراهقة ، تلك الفترة من العمر التي أعطاها سيجموند فرويد اهتماماً لا يقدر .

ولقد شهدت الحقول في ذلك الفجر الخريفي حواراً مؤلماً بين أم نعمان الراغبة في إلحاق وحيدها بمعية السيدة الجليلة كي يرفل في نور الكلوبات واللحوم والأرز والشاي والبطاطس ، وبين إبنها ـ محطم حلمها ـ ذاك الصبي الأحمق الذي يصمم على أن يترك الذهب دون ـ حتى ـ اختلاس صرة القماش ، وفي النهاية لا تجد أم نعمان ـ تلك التي ستظل مساءلتها دهراً ـ بُدّاً من صك وجه الملعون ابن الملعون بقطعة دسمة من الطين .

وهام نعمان على وجهه ، هجر العشة ولم يعد للقرية ، ساح وسط الحقول وتحت أشجار الجميز وبين فيافي العاقول والحلفاء وذيل القط ، حاملاً فوق رأسه المحلوق ، قرن الشعر وداخل رأسه ـ المحلوق ـ أشباحاً مزعجة ومثيرة لليلة السيدة الجليلة ، تنتابه القشعريرة واللذة كلما قفز في المياه أو تسلق جذوع الأشجار أو شد ذيول الابقار ، لكنه ـ أبداً ـ ظل هو نفسه ـ نعمان عبد الحافظ خميس الذي ينهي المسألة بوضع ذراعه تحت رأسه في ظلال أي كومة بوص وينام .

نعمان عبد الحافظ لم يكن شريراً ، ما حاول قط أن يختبر قدرته على الإمعان في عين الشمس ، رايح فين يا نعمان ؟ يضع كفه فوق عينه ويميل دماغه للخلف ليتقي النظر الى السائل ، وقبل أن يجيب يطلب منه السائل أن يسحب الحمارة لتتخطى نقرة أو قناة ، أو يساعد في جر بهيمة الى السوق ، أو يسعى في أثر جحش يقوم بتحميل السباخ ، أو يقشر كيزان الذرة ، أو يهش بقرة لتداوم اللف في الساقية ، أو ينيخ ناقة ، أو يسلس قياد جاموسة ترفض الرضوخ لشب هائج ، أو يبتاع الزاد والسجاير لأنفار يعملون ، أو يجيب على استفسارات لصوص المزارع ، وحتى دون أن تبحث عن نعمان فسوف تجده بين يديك ، في المرج أو غرب الجسر ، في هواش أو الطويل ، في الكلبى أو الحسائي ، تاركاً القرية العظيمة لتنشغل بأمورها : قتلت يني صاحب الفرن وزوجة عزيز أفندي وعلي عبد النظير وحسن البنا وسنيورة والنقراشي وفانوس وعبد القادر طه وحسب النبي ، أحرقت حقول القمح والقصب وأغرقت الفول ومزقت جثة وحيد عم رزق[٤] ، أفسحت ثلاثة أجنحة من مبانيها للبيوت السرية متعة وانبساطاً ، وقفت مرة مع الأحرار الدستوريين ومرة مع الوفد ثم انقسمت بين الأحرار والوفد فزاد عدد القتلى ، وظل الشيخ الشناوي يوزع الأنصبة والدمار والمكائد في بيوت القرية بالقسطاس ، وأم نعمان جالسة في عشتها تنعي حظها المكلوم ، ونعمان يسعى وسط الحقول يحمل الزاد ويهش البهائم ويجر ذكريات زاعقة عن ليلة السيدة الجليلة ، يبيح لنفسه أحياناً أن يمد أصابعه الى فخذ أنثى في سرابة قطن ، أو يقفز خلف صبية فوق ظهر أتان حائلاً دون سقوط الصبية فوق

الجسر ، أو يسمح لجسده أن يحتك بجسد امرأة يرفع معها جرة ماء ، أو يتغافل عن إغلاق عينيه حين تنحني إحداهن لتجمع سواقط سنابل القمح ، لكنه ـ والحقيقة تقال ـ لم يكن أبداً مثل دياب ذلك الذي وردت سيرته في رواية ظهرت في الخمسينات ـ والذي دأب على معاشرة الدواب[٥] .

يلوح لي أن الخطر الحقيقي الذي يطارد استقرارنا أن الرب بدأ الحكاية معنا بصفتنا صيادين ـ أو رعاة ، ثم أنهاها بعد استدراجنا لنصبح فلاحين ، لقد كان الأمر يحتاج الى فطنة أكبر كي نفهم اللعبة ، فقد حاصرنا الجبل ـ في الأحقاب القديمة ـ فزحفنا الى الشواطىء وغابات ذيل القط وأحراش السنط وآجام النخيل والبيوت ، غير متنبهين الى أنه لم يعد باقياً لنا من الحكاية كلها سوى مجموعة من المحظورات والتحذيرات والوصايا ، بدءاً من تجنب السرقة وانتهاء بمراعاة النوم مبكراً والاستيقاظ مبكراً ، مع ملاحظة لا تؤجل عمل اليوم الى الغد ، مروراً بحق الجار والزنا ومسك السيرة ورمي المحصنات والصلاة والزكاة وما شابه ذلك من أمور .

لكن نعمان لم يهتم ، ألقى بكل منجزات التاريخ خلف ظهره وظل سائراً ، يتجول في الحقول ويؤم تجمعات جني القطن وحصد القمح ودق الذرة ، ينسل الى المساجد والأفراح والمآتم والأذكار والغوازي ، حتى تنبه ذات يوم ليجد قدميه تقودانه الى اسماعيل الحفار .

والحفار ـ إسماعيل ـ رجل قليل الكلام ، يحفظ عن ظهر قلب

مواصفات كل الجثث ـ والأجزاء ـ التي دفنتها قريتنا منذ حفر سيدنا يوسف بحره الشهير، ينقلب قبلي البلد على بحري البلد فيقف اسماعيل الحفار على مدخل المقابر منتظراً ويدوي الرصاص والصراخ وتشتعل النيران فيظل يشعل السجاير مهدّماً بنظره في الجو ، وفي آخر النهار ـ أو في الصباح التالي على أكثر تقدير : تصل البشائر ملفوفة بالأكفان محمولة على الأعناق تتردد خلفها انشودة الاسترحام المقتطفة من بردة البوصيري .

وعندما وقع ظل نعمان على وجه اسماعيل الحفار الراقد على تراب حافة نهاية القبور حاجزاً الشمس ، وعندما تحرك الحفار مستقبلاً نعمان ، كان الجو صائفاً ، وكان الحفار قد ابتسم في بطء ، ثم اعتدل وأشار الى نعمان أن يجلس ، فأحس الولد براحة .

في اليوم الأول ساعد نعمان اسماعيل الحفار في رش المياه أمام مقابر بعض النجباء الذين يهتم وارثوهم براحتهم ، وفي اليوم الثاني سقى الصبارات لذوي المكانة ، وفي اليوم السادس شارك في فتح فوهة قبر ، وفي اليوم العاشر أنزله اسماعيل الحفار من الكوة العليا لمقبرة مستخدمة حديثاً كي ينزع بعض الأكفان .

وفي اليوم المائة سحب اسماعيل الحفار نعمان في يده ، وظل يتجول به بين المقابر شارحاً ظروف تضخم كل مقبرة ، حتى أوقفه أمام مقام مخلوع الأبواب مرسومة عليه أحصنة وبواخر وطائرات وجمل ، وظل نعمان ثابتاً أمام المقام حتى هزه الحفار ضاحكاً :

ـ هنا يمكن لك ـ يا ابني ـ أن تقضي الليل .

فاجتاح نعمان شعور جياش من العواطف ، أحس بعدها بأمن واستسلام وسلام ، فقرر أن يعود ليزور أمه .

---

(١) من المعتقد أن الشيخ ثابت عبد الرحمن هو الذي وصف آل خميس بعمى القلب ، وقيل أن الشيخ ثابت وصف آل مستجاب بهذه الصفة ، غير أن التجارب أثبتت أن هذه الصفة يمكن إطلاقها دون توجس على عائلات أخرى .

(٢) عبد العال حفناوي : كان أخوته يعيشون في كنفه تاركين لـه ـ وحده ـ مهمـة ملكية الأرض والعقار ، فقام بتزويج بناته من أفراد من عائلات أخرى غير عائلته ، وقد ورث الأغراب كل العقار والأرض ، تاركين عائلة المورث يعيشون على الكفاف .

ومن المهم أن نذكر أن معظم ما استباح الآخرون إرثه قد تبدد وبيع للجيل القائم من الورثة الأصليين .

(٣) وحتى بفرض أن أم نعمان قد صدر منها هذا الفعل فسيظل التشبيه يتضمن خطأ جسيماً ، إذ أن إبن أبي طالب ـ علي ـ أسفر الى معاوية في الشام واحداً من أصحاب رسول الله ﷺ هو جرير بن عبد الله البجلي ، طالباً منه أن يدخل فيما دخل فيه الناس ـ وهو مبايعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، مدللاً بحجج واثباتات من القرابة من النبي (ص) والتبكير في الاسلام والتضحية والكفاح والهجرة ، وهي مسائل يكاد يخلو منها معاوية وأبوه ، ولكن معاوية جعل يسمع من السفير ولا يقول شيئاً (وإنما يطاوله ويسرف في مطاولته ، ويدعو مع ذلك وجوه أهـل الشام ورؤساء الأجناد مظهراً مشاورتهم فيما يطلب اليه علي ، ويعظم قتل عثمان) أمير المؤمنين الراحل (ويحرضهم على الوفاء للخليفة المقتول والطلب بدمه) .

ومن المؤكد أن معاوية كان أكثر حكمة من أن يتعرض بالخشونة أو الأذى أو الشـدة للسفراء والمبعوثين ، ويراجع في هذا الشأن الجزء الثاني من الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين ، ومن المحتمل أن يكون هذا التشبيه قد دس للكاتب من أفاقي المتدينين .

(٤) اختطف أحد النجباء طفل عم رزق الوحيد الذي رزقه الله به فوق خمس بنات ، واحتجزه في حقل قصب لحين دفع الفدية وقد باع عم رزق جملاً وبقرة وأواني نحاس ـ تحت سمع وبصر القرية ـ ليفدي طفله ، وبعد دفع المبلغ تبين أن وحشاً قد فتك بالطفل .

(٥) دياب آخو محمد أفندي في رواية الأرض التي ألفها عبد الرحمن الشرقاوي ، كان نهماً ساذجاً يحب الطعمية ويمارس عمليات شائنة مع الحيوانات ، وقد قوبل سلوكه باشمئزاز في المنطقة الوسطى من الصعيد .

فصل في المقبرة الخاوية

أي مؤرخ سوف يصاب بالفزع والارتباك حينما يكتشف أن بطله ـ حامل نظريته ـ يخفي عنه أموراً بالغة الخطر ، وقد يؤثر الكشف عنها في متواليات التحدي والاستجابة التي ـ فيما يقال ـ تحكم حركة التاريخ ، بل ويعرض النظرية كلها للدمار .

فقد ظللنا طيلة الفصول الماضية نعتقد أن قرن الشعر المتوج لقراعة نعمان مجرد (نذر) مطلق للشيخ الفرغل لن يحلق إلا مقابل ذبح جدي على عتبة المقام ، واستمرت الأمور كلها تساعد في تغذية هذا الإدراك المحدود ، أم نعمان في عشتها تدفن المها في ثنايا كفاحها الدائب حول شواطىء بحر يوسف محاولة أن تضيف الى تجارة الملوحة والبلح الصائف وحلوى العسل نوعاً من الأدوية كالهندية والششم ، والسيدة الجليلة ـ والجميلة أيضاً ـ لم تبح لأحد ـ قريباً أو غريباً ـ عما قد يكون استرعى انتباهها في ليلتها العابثة مع نعمان ، والحلاقون كلهم ـ بدءاً من الحاج ياسين وعيد الى عبد اللطيف وموسى لم ينبهوا أحداً الى العلاقة بين نذر قرن الشعر وأي إجراء آخر ، ونعمان يتحرك من فصل الى فصل ويلج الحقول والتجارب والقنوات والبيوت ويقفز في الترع ويصطاد السمك ويتسلق الأشجار دون أن ينبهنا ـ هذا الوغد ـ الى ما يعنيه قرن الشعر ،

حتى كبر ـ نعمان ـ ونمت أرنبة أنفه وغلظ صوته واخشوشنت عضلاته ونبت شعر شاربه ، وشيوخ القرية ـ وساداتها ـ يقطعون الوقت في الحديث عن كامل تامر وشوقي تامر وسمعان القمص وحرب فلسطين وأنور موسى والشيخ الصباغ والغوازي وراديو أنور الشريف ، تاركين نعمان مصاحباً لاسماعيل حفار ـ أو فحار القبور ، حيث ـ وببساطة شديدة ـ نجد نعمان قد انتهى الى الإقامة في قبر مجهول له مقام بالغ الأناقة موسومة جدرانه بمراكب وخيول وطائرات وبواخر وجمل : جمل يمكن لك أن تسمع هديره على مسافة سبعة مدافن .

المؤسف حقاً أننا كدنا نساير نعمان في حياته بين الأكفان والأحزان والمراثي ، لولا أن ساق لنا القدر امرأة من نجع مجاور حكم عليها غلاة الأسياد ـ علاجاً لتورم في الإليتين واحمرار ملتهب في ملتقى الفخذين ـ أن تدفن نفسها فجراً في رمال قبر مهجور ثم ترش الماء المملح حين طلوع الشمس تسعاً وتسعين مرة .

وإسماعيل الحفار يعرف هذه المرأة جيداً ، ومن المحتمل أن يكون قد تقاضى منها أجراً ليدلها على مكان الشفاء ، وقد جاءت عصر يوم في الأسبوع الثالث من شهر أبيب عام ١٦٦٨ ، حاملة تحت إبطها صرة قماش ومطواة وإناء فخار ، فقادها الحفار بين دروب البغيلي ـ وهو الإسم الرسمي لمنطقة دفن الأموات ـ حتى وصل بها الى المقام المهجور حيث كان يجلس أمامه نعمان يجدل حبلاً من الليف .

في البداية شعر نعمان بوجل من المرأة ذات العيون المنكسرة ، اعتقد

أنها تبحث عن مقبرة عزيز تبغي أداء واجب الترحم على ذكراه ، ثم أعتقد أنها واحدة من تائهات القرى ضلت الطريق ، ثم اعتقد أنها غجرية وفدت من الصحراء لتبتاع ضلوع الموتى كي ترصد فوقها (الأعمال) .

فلما أوضح له الحفار اسماعيل هوية المرأة ازداد نعمان وجلاً ، إذ كان يفكر من أيام قليلة في زيارة أمه ، وعاقه عن المهمة التناحر الذي شب بين بحرى البلد وقبلى البلد وقطع على السابلة الطرق ، وقد حاول نعمان أن يهرب ، لكن اسماعيل الحفار أعطاه ظهره وهو يلقي إليه بآخر تعليمة :

ـ جهز المربع .

تنص التوجيهات الخاصة بالدفن العلاجي على الآتي :

١ ـ يحدد مربع (متساوي الأضلاع) على رمال ناعمة لا حصى ولا جير ولا نفايات فيها ، بحدود من جريد ذكور النخيل غير منزوعة السعف ، (ولعلاج الصغيرات تنص التعليمات أن يكون جريد ذكور النخيل ذا سعف أبيض : أي من قلب النخيل) .

٢ ـ تتلى على كل ضلع سورة الصمدية وآيتان من (الحديد) وآيتان من (التوبة) .

٣ ـ يرش المربع بالماء ويترك حتى يجف .

٤ ـ يقوم المريض بنفسه بحفر الحفرة على أن يكون اتجاه الرأس :

(أ) في الليالي القمرية :

- جنوباً للرجال وكبيرات السن من النسوة .
- جنوباً مع الميل شرقاً للشباب والأرامل .
(ب) في الليالي المظلمة :
- لا يهم الاتجاه حيث يقوم الأسياد بتعديل الوضع بالشكل الذي يفيد في العلاج .

٥ - لا يجوز أبداً البدء في الحفر بعد غروب الشمس كما لا يجوز تحديد المربع بجريد النخيل قبل الغروب .
٦ - لا يجوز استخدام جريد نخل يابس أو منزوع السعف .
٧ - يبدأ الدفن في منتصف الليل ، ولا يساعد على إهالة الرمال على المعالج كافر أو مشرك أو من يدخل اسمه حرف (ش) أو من اتهم في قضية زنا أو من مات له أبناء ، أو من لم يختن .

وقد انتهى نعمان من إعداد المربع في الوقت الذي جلب فيه اسماعيل الحفار جريد النخيل ، المرأة جالسة - على مؤخرتها - في ركن من أرضية القبر تدعو لهما بالسلامة والستر ، مراعين تماماً كل توجيهات العلاج الشائعة في المنطقة وإن كان ثمة فروق يسيرة في بقاع أخرى عن الاتجاه وطريقة إهالة الرمال وارتباط بداية الوأد في الرمال بظهور بنات نعش في السماء .

ثم أذن اسماعيل الحفار للمرأة أن تبدأ في إعداد مدفنها ، فمدت يديها الى مركز المربع ، ترفع الرمال بين كفيها وتخطو فوق سعف النخيل حتى تكومه بجوار حوائط القبر ، فلما أرهقت خلعت جلبابها الأسود

وأعدته بشكل يصبح صالحاً لرفع الرمال ، والظلام يلف القبر ، ونعمان واسماعيل جالسان على الباب يتسامران .

لا نعرف لماذا بكت المرأة حينما انتهت من إعداد الحفرة ، فقد كانت خاضعة للمواصفات ، وقد مدحها اسماعيل الحفار حينما بدأ في سبر غور الحفرة والكشف عن أية عيوب فيها ، ثم أعلن اسماعيل الحفار صلاحية الحفرة للعلاج ، طالباً من المرأة النائحة أن تخلع باقي ملابسها ، فنهضت مرتبكة وظلام القبر يغطي حركتها ، غير أن الظلام لا يهم ، فالعلاج أهم من الظلام ، وإذا كانت هذه هي التجربة الأولى لنعمان فهي التجربة الألف لإسماعيل الحفار ، لذلك فقد سار الحفار إليها ، رفع ذراعيها الى أعلى ونضا عنها جلبابين وسروالاً ، وأمر المرأة أن تكف عن النحيب .

كل شيء واضح في الظلام ، انعكاسات هزيلة لضوء النجوم يتسرب فيحيط الأجساد بحدود باهتة رقيقة ، امتدت يد اسماعيل الحفار الى جذع المرأة طالباً من الله أن يجعلها خطوة مباركة متوسلاً للسماء أن تبدد عنها المرض ، وامتدت ذراع نعمان الى يد المرأة العارية بارتباك مرتعش مما حدا بالحفار بالصراخ فيه ، وأخطأت المرأة بأن تحركت بقدمها اليسرى فأعادها الى الخلف كي تبدأ الخطو بقدمها اليمنى ، والليل الرمادي يلقي بالأشعة الواهنة على كتل المكان فيضفي على الدنيا صمت الآخرة .

وعندما أصبحت الإجراءات المبدئية صحيحة ، ونجحت المرأة في

الوصول الى بداية الحفرة ، أمالها الحفار الى الخلف مستندة على ذراعي نعمان ، وبدأت تنسل بساقيها الى العمق ، وجزء من سورة يسن ينهمر من فوهة الحفار فيصنع أسواراً عالية من الحماية والأمل والتقرب الى الملائكة وإبعاد الشياطين حتى استرخت المرأة في الحفرة ، ولم يعد باقياً خارجاً سوى رأسها الحزين الواجف المهتز ، حينئذٍ طلب الحفار من نعمان أن يبدأ في إهالة التراب على الجسد المقروح .

في حرص ودأب بدأ نعمان وأد المرأة ، جلب رمالاً في جلباب المرأة المخلوع وطمره على الساقين ، أمره الحفار بأن يتلو شيئاً لكن نعمان اعتذر لعدم درايته ، فاضطر الحفار أن يتلو بمفرده على رأس المرأة ، حتى غاصت السيقان والفخذان والبدن والصدر ، وأحست المرأة باختناق فعرف نعمان أن الشياطين تجاهد للخروج ، وعطست المرأة فأصبح يقيناً أن العلاج يسير في الطريق المرسوم ، بعدها أمر الحفار نعمان أن يسوي أرض القبر حتى لا تتأذى الملائكة ، فخلع نعمان جلبابه كي لا يعوقه عن عملية التسوية ، وجسده يتصبب عرقاً ، وانحنى ببقايا جريدة نخيل يسوي المكان ورأس المرأة المخنوق يتوسل الى الله أن يمنّ عليها بالشفاء ، وهام على المكان ركود وصمت مهموس مغموس في ارتجافة آخر الليل الرطبة ، حتى أقعى نعمان في النهاية بجوار رأس المرأة . . .

والأكثر حرجاً أن صرخة رأس المرأة المخنوق لم تصدر نتيجة لدغة ثعبان أو عقرب أو اجتياح شيطان أو وخزة ملاك ، بل جاءت نتيجة إمعان مرهف من عيون الرأس الى جسد نعمان ، فقد تنبهت الملعونة إلى ما لم يتنبه اليه المؤرخون والمهتمون ، تنبهت الى قرن الشعر الواقف

كنبات عش الغراب فوق قراعة نعمان ، سألته ـ من توسلاتها ـ عن أمه ، وعن أبيه ، وعن الشيخ المنذور اليه حلاقة قرن الشعر ؛ ثم : في صمت مرعوب لفت رأسها حتى استطاعت عيونها الكليلة أن تحاصر ـ في الظلام ـ الكليل ـ أفخاذ نعمان ، وهمست :

ـ أوعى يا ابني تكون مش متطاهر ؟

هنا وقفت العفاريت في ظلام المكان تعيث في القبر فساداً ، فقد أعلن نعمان أنه فعلاً لم يختن ، وأن قرن الشعر مرتبط بعملية الختان ، وأن كل الناس يعلمون إلا قرن شعر لمن سبق ختانه ، فظل رأس المرأة يرتعش ويهتز فوق الرمال رافضاً الرضوخ لكل قراءات اسماعيل الحفار وتوسلاته للجن ، ثم اجتاح الإرتعاش باقي الجسد المتخبط الموءود في رمال القبر ، حتى انزاحت الرمال متحولة الى غبار شيطاني عربيد والخوف يهز نعمان واسماعيل والأحجار وسعف النخيل ، صرخة أولى وثانية وانهمار استغاثات مرعبة ، فقد كان محرماً على من لم يختن أن يشارك في الوأد أو إهالة الرمال ، وأصبح الموقف حرجاً ، وحاول اسماعيل ـ بكل تماسكه ـ أن يحول بين المرأة والحركة ، غير أن الشياطين كانت قد فتحت ثغرة في الهدوء ، وانخلع الجسد من بين طيات الحفرة ، قوياً صلباً عارياً دامي المؤخرة صارخاً ، ولم تلبث المرأة أن شقت الطريق هائجة ، قفزت من الباب الى الدرب الى شواهد القبور ، تتخطى الحواجز والأحجار وجذوع النخيل ، وصوتها الممسوس يلف الكون ويهدم أعالي الشجر ويقلق الموتى ويعذب الملائكة ، والخطيئة تلتف حول نعمان الفاغر فمه يحاول أن يستر جسده بيديه ، والحفار يجري مرة وراء الجسد القافز الهائج

ويعـود مرة الى نعمـان ليسبه ويـركله ويضربـه في بـطنـه ، والنجـوم استدرجت بنات نعش للاختباء من الشياطين ، والقرية نائمة لا يقلقها ـ الصراخ أو الخوف أو الهلع ، غير راغبة في الاستيقاظ من أجل نعمان أو المرأة أو اسماعيل ، عدا كلب أو كلبين : نبحا قليلاً ثم عادا فصمتـا انصاتاً ، ثم لم يلبث أن عاد الهدوء فغمر الدنيا لفجر يحتمل أن يقترب ، دون اهتمام بهذا الارتباك الذي أصابنا حينها اكتشفنا أن نعمان ـ حامل نظريتنا ـ يخفي عنا أموراً لها مثل هذا الخطر .

فصل في الختان

لعل أول من بدأ حواراً جدياً في شأن ختان نعمان قريب لأمه يعمل في مجال تسويق بيض الدجاج في أعقاب وباء فتك بدواجن المنطقة في صيف عام ١٦٦٨ قبطية ، والذي كـان ـ فيها يعتقـد ـ يعد العـدة لمصاهـرة نعمان ، غير أن أم نعمان أوضحت لقريبها بعض العوائق التي تحول بينها وبين اتخاذ اجراءات ختان ابنها ، منها أن ختان نعمان موقوف على ذبح جدي ، ومنها أن الأمر يستلزم تجهيز جلباب أبيض وطاقية مقصبة ، ومنها أيضاً نذرها السابق والمؤكد بإجراء الختان على عتبة مقام الشيخ الفرغل الذي يبعد عن القرية مسافة تزيد على الثلاثين قرشاً ، ومنها أنها قد نفضت يديها عن نعمان الآبق واعتبرته قد غرق أو أحرق أو مات ، وبكت أم نعمـان حينها وصلت الى المقـطع الأخـير من عـوائق ختـان نعمان ، غير أن قريبها أخذ يفند في روية محاذير أم نعمان ، وأوضح لها أن رضا الأم ، من رضا الرب ، وأن ما أشيع عما حدث بين نعمان وبين سيدة المقابر مؤشر لسخط الله على نعمان المؤسس أصلاً على سخطها هي ، فلما هزّ قلبها وبان في عين أم نعمان ميلها الى الصفح :

عرج الى المسافة الفاصلة بين مقام الشيخ الفرغـل وبين مقـام أم نعمان ، حيث ضغط على أن الأعمال بالنيات ، والدين يسر ، ومن

استطاع الى المقام سبيلاً ، كما أن للشيخ الفرغل ولا بد أن الجميع عالمون ـ علماً لا حدود له برغبات محببة ثم اندفع الى الذبيحة ، فقص لها قصصاً ـ وهي أسانيد مؤكدة ـ عن قبول الشيخ الفرغل لنذر كانت في البدء عجولاً وجمالاً ، استحالت لظروف طارئة الى دجاج وأرانب ، وأن الشيخ الفرغل أكبر من أن يغضب على محبيه بسبب تقلص قدراتهم ، يكفي النية والرغبة الشريفة ، حينئذٍ أصبح أمام مذلل العقبات عائق الجلباب الأبيض والطاقية المقصبة ، وهي أمور لا تصلح فيها النيات والرغبات الشريفة ، إذ أي أي حلاق ـ لن يمد الموسى الى قلفة ذكر إلا إذا كان مرتدياً مسوح الختان ، فاضطر قريبها أن يعترف بألا مناص من ابتياع جلباب أبيض وطاقية مقصبة على أن يترك له تدبير ليلة كبيرة من ليالي المشايخ سواء في القرية أو أي ناحية قريبة أخرى .

بدىء الاستعداد لختان نعمان فور المصالحة التي تمت بينه وبين أمه والتي شارك فيها اسماعيل حفار القبور وعيد المزين والقريب المتخصص في تسويق بيض الدواجن ، وقد أمكن لأم نعمان شراء قماش الجلباب والطاقية من عبد الودود الأخنف أقدم تجار القماش في القرية وأكثرهم أصالة ، وقام أمين الخياط بإعدادهما مقابل ربع قمح ، كما قام عيد المزين ـ مخلصاً ـ بالحصول على الفتوى الخاصة بإمكان إجراء الطهارة لنعمان على عتبة مقام أقرب شيخ كبديل للشيخ الفرغل المقيم في آخر قبلي الدنيا ، وأعد اسماعيل الحفار جريدة مضفرة السعف ، كما أهدى الى أم نعمان كمية من الحنة السويسي ، حيث أصبح لزاماً ـ بعد ذلك ـ على أم نعمان أن تعود الى بيتها ـ في القرية ـ المهجور منذ ستة فصول ،

والذي لا يمكن لها أن تختن نعمان بعيداً عنه ، حتى يتسنى لها إعداد مخلوط البسكويت والفول السوداني والكراملة ، لتوزعه على الأهل كضرورة للحصول على النقوط .

بعد جهود فائقة وترتيبات مفرحة قامت أم نعمان في منتصف الليل بإعداد العدة للانتقال الى مقام الشيخ أبي هارون المقيم في نزلة أمشول ، امتطى عيد المزين واسماعيل الحفار ـ ومعهما أرنب كبير الحجم ـ حمارة الشيخ عبد العزيز خليل ، وامتطى نعمان ـ وخلفه أمه ـ حمارة جلجلة زوجة تادرس ، ووضعا أمامهما سلة الكعك والبسكويت ورفعا ـ رغم الظلام ـ جريدة النخيل المضفورة كعلامة للمناسبة ، واخترق الجمع الحقول والفيافي حتى أشرفوا على نزلة أمشول فجراً ، حيث كان مولد الشيخ أبي هارون في عزّ انتشائه .

فور وصول القوم قاد اسماعيل الحفار الركائب وسط المولد ميمماً شطر المقام ، محاولاً تفادي المحتفلين والذكارة ، والحواة والباعة .

كل شيء على ما يرام : لف نعمان حول ضريح الشيخ أبي هارون المضاء بالشموع ، ووهبت أمه قروشاً لخدم المقام والمتسكعين حوله ، وفرش عيد المزين جوالاً ، وزغردت أم نعمان فضاعت زغاريدها وسط ضجة المولد ، ودعى على حجر ، ورشت أم نعمان الكراملة فوق رؤوس الناس ، وذبح اسماعيل الحفار الأرنب على العتبة ، وأخرج عيد المزين عدته ، وقام المختصون بتبخير رؤوس القوم بالمسك والروائح الطيبة ، وتلا أحد القراء شيئاً من القرآن ، وكان الصبح المبكر قد غمر

الدنيا فبانت ارتجافة مرتعشة على وجه نعمان .

في البدء كانت الحلاقة ، حلاقة قرن الشعر الواقف منذ خمسة عشر عاماً فوق قراعة نعمان لا يمكن المساس به دون الوفاء بنذر للشيخ الفرغل ، ذلك الشيخ القائم بعيداً كي ينوب عنه الشيخ أبو هارون ، وكلما طقطقت ماكينة عيد المزين فوق رأس نعمان انهمرت الزغاريد والكراملة والبسكويت ، وجريدة النخيل المضفورة السعف ملطخة بدم الأرنب تتراقص في ذراع اسماعيل حفار القبور معلنة الفرح والسعادة ، ونعمان يبكي بين يدي المزين ، وأمه تنتابها السعادة ويغمرها الانتشاء فترقص ، والشيخ أبو هارون يغمر الجميع بالحماية والامتنان .

وعندما نجح عيد المزين في إسقاط قرن الشعر وتهاوى ـ القرن ـ على الجوال المفروش ، أباح للمحتفلين وقتاً وسيطاً للرقص والزغاريد ، ثم طلب من اسماعيل الحفار أن يوثق بذراعيه نعمان من الخلف ، حينئذٍ اهتز قلب أم نعمان ، متذكرة عبد الحافظ خميس ، زوجها ، فارسها قريبها رجلها ، ذلك الذي رحل منذ أعوام بعيدة دون أن يحظى بحضور احتفال القوم بختان ابنه ، فبكت أم نعمان ، نهنهت لتضفي على الضجة حزن الأم والزوجة ، فأسكتها عيد المزين بكلمتين مواسيتين ، بعدها قام اسماعيل الحفار برفع ملابس نعمان حتى وسطه ، وأجلسه بين أحضانه فوق الحجر ، وتغلبت أم نعمان على بكائها وقلبته الى زغاريد ، وعادت الى رش الكراملة والبسكويت فوق الرؤوس .

صرخ نعمان حينما أوثقه اسماعيل الحفار من الخلف ، لافاً ذراعيه

حول عجزه وساقيه حول فخذيه ، وبدت أعضاء نعمان واسنة لا تدري أن ثمة اغتيالاً سيحيق بها ، وقرأ عيد المزين الفاتحة والصمدية ودعاء أن يتولى الشيخ أبو هارون تزويد الشيخ الفرغل بتفصيلات تقديم النذر وأخرج الموسى وظل يسنها ونعمان منفرج الأعضاء موثق الجسد ، ثم امتدت يده المدربة الى قلفة نعمان ، فانسحبت القلفة اللحمية المرنة حتى كادت أن تنخلع في أصابع المزين الخبير ، وظل عيد المزين يدعك في القلفة ثم يسحبها وسط صراخ نعمان وزغاريد أمه ودعابات اسماعيل الحفار ، بعدها ، أدخل المزين عوداً من الخشب في عضو نعمان لتمتد عليه القلفة ، وشرع موسه الحادة ، لتقطع الجزء الأول من القلفة ، ولتتلقفها أم نعمان في قطعة قماش كي ترفعها وترقص بها ، وينبثق الدم قانياً ، وتعود التالية ، غير أن صوتاً آمراً يوقف أصابع المزين عن تلمس القلفة : أصابع عيد المزين مرة أخرى الى القلفة فتسحبها خارجاً كي تقطع المساحة .

ـ الأسطى من اين ؟

فيرفع عيد المزين رأسه وذراعاه ممتدتان متشبثتان بعضو نعمان . .

ـ من ديروط الشريف . . . عقبال عندك !! لكن الرجل الغريب أعلن في وضوح احتجاجه على قيام حلاق من قرية أخرى بإجراء ختان في قريتهم ، وأمر القوم أن يتوقفوا عن إتمام الطهارة ، غير أن عيد المزين تجاهله ضارباً باحتجاجه عرض أفخاذ نعمان ، فانفعل الرجل محتجاً مرتين : مرة لخرقهم العهد المبرم منذ سنوات بألا يعتدي حلاق قرية أخرى على اختصاصات حلاقي قريتهم ومرة لإحساسه بإزدراء عيد

المزين له ، وعاد الرجل الغريب الى الصراخ فيهم ، فتوقف نعمان عن التختين وأم نعمان عن الرقص واسماعيل الحفار عن تشديد تكتيف نعمان من الخلف .

وظهر من وسط القوم من تعاطف وتضامن وعضد وجهة نظر الرجل ، وحاول اسماعيل الحفار أن يمنح الغريب قروشاً ، إلا أن الموقف تدهور بسرعة ، فقد رفض الرجل أن يترك الأمور تسير دون أن يقوم أحد حلاقي أمشول بالختان ، وبان من أسارير المتجمعين انتشاؤهم بهذا الموقف المتدهور ، والدم يسيل غزيراً بين أوراك نعمان ، والقطعة الأولى من قلفة نعمان لا زالت بين يدي أمه الخائفة .

وقف عيد المزين ـ والموسى في يده ـ ليوضح للرجال الظروف التي أدت بهم الى التغاضي عن هذا التقليد ، متوسلاً إليه أن يتركه ينهي مهمته ، داعياً له أن يقوم الشيخ أبو هارون ـ نيابة عن الشيخ الفرغل ـ بهدايته وإكرامه ، ولا سيما وأن الختان قد تم ولم يبق سوى التشذيب ، فصمم الرجل ـ متشدداً ـ على موقفه ، ليكون الموقف كله درساً لكل أهالي ديروط الشريف الذين لا يراعون الواجب ، بل وأطلق قسماً مغلظة ألا يقترب أحد من المختون ، وأخرج من صديريته مطواة وفتح سنها .

حينئذٍ بدا أن الأمر صعب المعالجة ، فظل عيد المزين مغتاظاً لكنه عاجز عن التصرف ، وظلت أم نعمان تسب مرة وتتوسل مرة ، وحاول اسماعيل الحفار أن يهدىء خاطر الرجل ، وحاول أفراد أن يستسمحوه ، وحاول نعمان أن يقف ، فشعر بالألم يعاوده شرساً قوياً ،

باكياً ، حينئذٍ اقترب مصلح وطلب من آل نعمان أن يقصروا الشر وأن يراعوا حلف اليمين وأن يرحلوا .

وعاد عيد المزين الى عدته يجمعها ، ولمَّ اسماعيل الحفار نعمان بين ذراعيه ورفعه - ملفوفاً بالجوال والدم والجلباب الأبيض والطاقية المقصبة ووضعه فوق الحمارة ، وأم نعمان تهذي معلنة سخطها على تلك الفتوى الملفقة التي استبدلت شيخاً هماماً كالفرغل بشيخ هزيل كأبي هارون ، . . . . ونعمان دكه الألم وبدأ أنين خافت يئز من فمه ومن بين فخذيه ، وعلى أرض المأساة ترك القوم جريدة النخيل المضفـورة السعف وجلد أرنب كبير الحجم وبسكوتاً مفتتاً ودماً كثيراً وقلفة جلدية غارقة في الدم والتراب .

فصل في إتمام الختان

كل شيء مرهون بإرادة الله ، وإذا شاء الله لنعمان أن يختن في مكة فلا عائق ، وإذا شاء الله لنعمان أن يختن في الطائف فلا حائل ، وزام اسماعيل الحفار مصدقاً على السلوى الذليلة المنسابة من فم عيد المزين ، والحمارة أسفلهما قد أرخت أذنيها وعنقها وكاد منخارها أن يحتك بالأرض ونعمان ـ معتلياً الحمارة التالية ـ يستند بظهره على صدر أمه الهاشة الركوبة في صمود صامت مكسور العيون وما بين الفخذين ، وعيد المزين يثابر كي يخفف عن الركب مهزلة عدم إتمام ختان نعمان ، موضحاً بين المرحلة والمرحلة شكه في الفتوى التي دست اليهم مبيحة تغيير مسار النذر من مقام الشيخ الفرغل البعيد الى مقام الشيخ أبي هارون القريب ، والحمارتان تدوسان تضاريس المنطقة الشاسعة الفاصلة بين أمشول[1] وقريتهم تتخطيان النقر وقطوع الطريق وتزحفان صعوداً فوق أكوام الخرط وأكتاف الجسور ، وبين وقت وآخر ينزل عيد المزين من فوق ركوبته ويتجه الى نعمان الغائب في غيبوبة الألم ـ حيث يكشف عما بين فخذيه ليطمئن ، ولقد نجح عيد المزين في وقف الدم ، مرتين بالبن ـ وثلاث مرات بالتراب الناعم ، واضطر الحفار اسماعيل أن يشيد بفوائد البن والتراب في وقف النزيف ، وقص حكاية بنت أخته التي أنقذها البن ولم تمت إلا بعد أن استدرجه الحساد والجهاد لنقلها الى

المستشفى ، وبات من المؤكد أن ثمة حالات نزيف كثيرة نجح في علاجها البن وروث الدواجن وتراب الفرن والشعر المحروق : روى بعضها عيد المزين وروى بعضها الحفار اسماعيل وروت بعضها أم نعمان[٢] ، ونعمان صامت صامد مسترخ مستلق على صدر أمه ، ينهشه الألم كلما قفزت الحمارة أو توقفت أو اقترب منه عيد المزين كي يطمئن الى مهزلة ما بين فخذيه ، فيصرخ أو يتأوه لكنه يعود الى السكون ، وكلما تأوه أو صرخ ازداد احساس الركب باليتم . . . ، يتم حاد يرزح فوق الأعناق ، ويهتز مع اهتزاز خطى الحمارتين ، يتم حاد شرس لم يتأثر مطلقاً بهذه المقولة العظيمة التي حاول فيها أحدهم أن يروي وصفاً لرحلة يوسف النجار ومريم والمسيح من بيت لحم الى الصعيد .

يقيض الله للناس دائماً من يأخذ بأيديهم ، من ينقذهم ، من يرد لهم قيمتهم ، من يمسح الدمع من العيون ويزيل الكمد من الصدور ويرفع الرؤوس حتى تصطدم بكبرياء الملائكة[٣] .

عبد الحميد عبد العزيز[٤] أو أخوه أحمد هو الذي اعترض طريق القوم في مدخل قريتهم ، في البدء استفسر عما بهم دون اهتمام مؤكد عما بهم ، وما كاد المزين عيد يروي للمعترض خلاصة الموقف الذي انتهى بطردهم من مقام أبي هارون دون إتمام ختان نعمان لاستخدامهم مزيناً غريباً عن البلدة ، حتى ناحت أم نعمان ، بكت وعوت فبكى نعمان وعوى ، وانهمر الدمع من العيون والدم من بين فخذي نعمان ، وقفز الحفار اسماعيل الى نعمان ليكشف عما بين فخذيه ، فأحس المعترض بكبرياء القرية كلها ينزف فوق ظهر الحمارة فتغرق ملابس نعمان

وبردعة الحمارة ملوثة بالبن والتراب ، وتراجع المعترض إلى الخلف، وكأن التراجع يعطيه منظوراً آخر يعيد به الإمعان في المأساة النازفة ، وكلما خطا خطوة الى الخلف تجمع الناس وأعادوا السؤال ، وكلما أعاد الناس السؤال أعاد أحد أفراد الركب إيضاح أبعاد المصيبة وكلما أعاد أحد الأفراد إيضاح أبعاد المصيبة ولولت أم نعمان وانهمرت الدموع ، وكلما انهمرت الدموع بدأ الدم من بين فخذي نعمان « يبزبز » متخطياً سدود البن والتراب ، حينئذٍ ولأن الله لا يحب أن يتجرأ أحد على كبرياء قريتنا ، اكتشف الجميع ـ كل واحد ـ أن أمشول قرية ظالمة ، لا تفهم الأصول والقواعد ، وأن أمشول : سبق أن طردت أحدهم من سوقها ، وأنها أخفت مجرماً ، وأنها أكلت حقوق تاجر ، وأنها أعادت عروساً دون جهاز ، وأنها باعت نخالة مغشوشة بالتراب ، وها هي أمشول الظالمة تعيد واحداً من أبناء ديروط الشريف دون إتمام ختان .

كان عظيماً هذا الموقف الذي وقفه عبد الحميد عبد العزيز ـ أو أخوه أحمد ـ حينما أقسم بالطلاق ـ وبصوت مدوٍ لف أنحاء القرية وهيّج الغربان في الحقول ـ أن لن يتم ختان نعمان إلا في أمشول ، وإذا كان في أمشول رجل فليخرج اليهم .

وبدأت ديروط الشريف تمور وتتلوى وتلقي في الحقول بقدراتها العظيمة الكامنة في البيوت والباحات والمقاهي والمساجد وبيوت الغوازي ، ترتعش شرايينها وتنتفض طاردة من جوفها طاقات وقوى تحمل البنادق والسكاكين والبلط والحراب ، مؤيدة عبد الحميد عبد العزيز ـ أو أخيه أحمد ـ في المسيرة المباركة نحو أمشول لإتمام ختان ابنها ،

وابنها ـ نعمان ـ قد أفاق على الجموع الهادرة المخترقة حرارة الشمس وطين الأرض وزغردت أم نعمان ماسحة من عينيها دموعاً ، وامتدت أيد حنون الى مقود الحمارة لتعيد اتجاهها الى أمشول ، والرؤوس مصوبة في كرامة واصرار نحو السماء ، لتتحرك الحملة المسلحة فوق الطريق الطويل .

مشهود ذلك اليوم ، مرفوع رأس القرية ، شامخة كرامتها ، ألف رجل ـ قيل ـ وألفان ـ وثلاثة آلاف ساروا في هذا المشهد العظيم خلف حمارة نعمان ، لا كلام ولا تفسير ، فقط رحلة حمية وإصرار تخطت الترع والمصارف وبحر يوسف والمزارع والحقول ، والمزين عيد يهرع بين كل مرحلة وأخرى ليطمئن على ما بين فخذي نعمان ، ونعمان بعيون كليلة مغلقة يتابع يوم الحشر ويتأوه من الألم ثم يغفو ، والقوم ـ صامتون ـ تتردد أصداء خطواتهم في فراغ الحقول الشاسع وتصطدم بالجبل الغربي البعيد فتعود إلى آذانهم لتدفع في الرؤوس الدم والحمية والإصرار ، حتى بانت بوادر أمشول ومقام شيخها أبي هارون المتخلي عن نعمان .

حينئذٍ أمر الزعيم عبد الحميد عبد العزيز ـ أو أخوه أحمد ـ الحملة أن تضع رحالها ، وأن تتوقف ، وأرسل الى أمشول ليستدعي مسئوليها ، ووقف مستنداً على ظهر حمارة جلجلة زوجة تادرس المترنح فوقها نعمان مسترخي الساقين مكوماً في أحضان أمه .

لم نكن نعتقد أن قريتنا تحب نعمان كل هذا الحب ، أبداً ، لم نتصور لحظة أن هذا الحب يمكن أن يترجم وبسرعة إلى هذا الجحفل المسلح

بـالبنادق والشـراشر والسكاكـين ، وعلى أمشـول أن تعيد النـظر فيـها ارتكبتـه ، نعمان يتيم . . نعم ، لكن ديـروط الشريف قـريته وبلده وأبوه ، نعمان فقير . . . نعم ، لكن ديروط الشريف عزوته وقوته وثروته ، ولو كانت هناك ألف قرية وألف جيش لاستطاعت حملة نعمان أن تهزمها ، ونعمان ـ صحيح مغلق العيون مفتت القدرة خائر مكسور ـ لكنه يقظ ، يحس بحركة القوم حوله وبين فخذيه وفي إغلاقة العيون المتعبة ، يحس بالتعاطف والود والحمية لكنه لا يلبث أن تنقل عروقه كميات مذهلة من الألم من ميناته المجروح إلى داخل رأسه فيعود إلى الأنين والإغفاء .

وجاء رؤوس أمشول ، جاؤوا هادئين وبأيديهم سلاحهم ، ووراءهم طابور طويل من شعب أمشول يستطلعون ويرون ويحاولون أن يفهموا .

كان الزعيم عبد الحميد هادئاً ، حيا رأس الوفد وأخذه جانباً ، شرح له الأمر في كلمات قليلة وعينه الرمداء تحوم حول الجيش .

لكن رأس الوفد ضحك ، ظل يضحـك حتى اهتزت البنـادق في الأيدي والبراعم في الحقول ، وهز رأسه في هدوء وخبرة وهمس :

ـ الشيخ أبو هارون وحلاقو أبي هارون تحت أمر ابنكم . .

حينئذٍ صرخ الزعيم عبد الحميد في القوم باعتذاره ، معلناً تقديره الكامل لأمشول ورجال أمشول وأقسم بالطلاق ألا ختان لنعمان إلا في ديروط الشريف . . . قريتهم المعظيمة .

وطأطأت الحمارتان رأسيهما ، وسار الجيش خلفهما ، ونعمان مغمى عليه ، يضج بالألم والسكون والارتياع ، وعيد المزين يهرع بين كل مرحلة وأخرى كي يكشف عن الجرح المتورم بين فخذي نعمان ويهيل على الدم التراب ، وعبد الحميد الزعيم يسير أمام القوم مرفوع الرأس .

---

(١) تقع أمشول في آخر غرب الوادي ، والمسافة بينها وبين ديروط الشريف تجاوز الخمس ساعات فوق ظهر حمار قوي وسريع ، ويقطعها العامة مترجلين في ضعف هذا الوقت .

(٢) يحتمل أن تكون حادثة بنت المرحوم الشيخ ثابت من تلك الأحداث التي وقعت في تلك الفترة : إذ زوجوها في التاسعة من عمرها وحملت في العاشرة ، ونزفت قبل أن تضع مولودها ، فاستعانوا بمن يعالج النزيف الدموي بالتراب والتبن ومزق الملابس أربعة أيام متتالية : ثم نقلت عنوة الى مشتفى البندر حيث فاضت روحها أثناء محاولة وقف نتائج التهتك والتمزق ، وتسلمها ذووها من المستشفى كمية من شرائح اللحم ، ومن الغريب أن خال هذه الضحية ـ ذا السيطرة على سلوك أهلها : ناظر قديم بمدرسة القرية وقيل أنه ظل فترة من حياته يقرض الشعر ، ويؤلف أناشيد الجهاد ضد الانجليز .

(٣) من أقوال شيخ ضرير ، وليس معروفاً على وجه اليقين ما هو المقصود بتعبير : (يرفع الرؤوس حتى تصطدم بكبرياء الملائكة) : إذ أن مثل هذا التعبير لا يخرج إلا من فم متمرداً تمرداً حضارياً ينحو منحى الوجودية ، والتمرد الحضاري نمط دخيل على مجتمع نعمان عبد الحافظ خميس .

(٤) عبد الحميد عبد العزيز خليل : واحد من عامة قبلي البلد ، يميل الى الزعامة وقيادة الناس ، ظل فترة فلاحاً ثم اغتنى من التجارة فابتاع أرض آل غلاب ؟ واستطاع ـ في إحدى فترات التقلب ـ أن يصل الى منصب رئيس الجمعية الزراعية ، وهو رجل طيب يشعر بالولاء لأغنياء القرية ويتمنى التقرب منهم والدخول في عالمهم عن طريق تسهيل مهامهم ، وهو نموذج من تسعة نماذج في ديروط الشريف يعشقون هذا السلوك .

فصل عن الأيام العظيمة

تورم ما بين فخذي نعمان واقتعد المنزل ـ في القرية ـ أو العشة على شواطىء بحر يوسف والأحداث تترى سريعة متلاحقة : هوجمت حاجيات أمه مرتين ، ومات الشيخ بكر إثر اقترانه بالزوجة الخامسة وبعد أن باع الأملاك والسيارة الجيب وافترش الأرض بجوار شهاوي بائعة الطماطم ، وفتكت الدودة بزمام البلد من القطن وتركت الحقول حطباً يتمايل مع ريح الخريف ، وقاد عدلى طلبة عليمي مظاهرات طلبة مدارس البندر مطالباً بعودة محمد نجيب ، وثاب الشيخ ثابت الى رشده متجنباً ارتياد الأماكن الموبوءة فور هلاك ابنته ، ونجح المستشار أحمد عبد الجواد في انتداب أحمد عبد المجيد الناظر للتدريس في السعودية ، واشتراك محمود عبد اللطيف مع آخرين في تنفيذ اتفاق جنائي الغرض منه إحداث فتنة دامية لقلب نظام الحكم وذلك بأن شرع في قتل قائد الثورة مطلقاً الرصاص عليه في ميدان المنشية ، وزارت الحاجة فجرة قبر النبي عليه الصلاة والسلام للمرة الرابعة وبيضوا مدخل البيت بالجير والرسومات ، واستصدر الحاج حمدان حكماً بالحجز والسجن على صديقه الأثير ـ والمريض ـ محمد مستجاب حيث قضى الشهور الأخيرة معتقلاً في المستشفى وفارق الحياة ، واستمرت جريدة الأخبار في نشر مغامرات وحيد رأفت ضد الملك فاروق الأول ، وطلق الشيخ محمود علي

زوجته الثانية وأعاد الزوجة الأولى ، ونجح عبد القادر مرسي في إنكار علاقته بالإخوان المسلمين وتم الإفراج عنه ، ومات الشيخ عبد الجواد ذو الكرامات فقام مريدوه بتنصيب ابنه التلميذ على أريكته ، وأعلن عتاة البلد ونجباؤها تخليهم عن الوفد والأحرار الدستوريين وبدءوا يستعدون لرفع رايات هيئة التحرير ، وأخرجت مدرسة المعلمين - الجديدة - أول فوج من المدرسين ذوي الملابس النظيفة ، وأثار بيت معوض بعض العامة ضد بيت القمص فكادت أن تحدث كارثة، وارتفعت أسعار الحشيش والأفيون وبذور البرسيم والسمسم لينضم أفراد جدد لقائمة الأغنياء ، وأغلق أنور موسى الشناوي عيادته البدائية ليلتحق بفريق صلاح أبو سيف القادم إلى البلدة لتصوير فيلم الوحش حيث ظهرت صور أنور وجدي وسامية جمال وخلفهم بيوت ونخيل ورجال القرية في الصحف السيارة ، وحفرت الحكومة الشوارع المؤدية لقصور علية القوم لتمد مواسير المياه المكررة ، وأهدى الحاج كامل ميكروفوناً لجامع الأمير سنان فظل يلعلع لليال طويلة ، وأنشأت الحكومة الثورية وحدة مجمعة ومدرستين ومتنزهاً وسط البلد ، وتوسع أولاد علام في إقامة تجمعات الزار لعلاج ضحايا الجن ، واستمرت عوانس الأثرياء عوانس ، وتوسعت الحاجة فيات في عدد بيوتها التي تقدم المتعة للقادرين ، وجرح اثنان في مشاجرتين متتاليتين خلال التهافت على مراكز توزيع الدقيق الأمريكي ، واشتبك عبد الله الغشيم - ذو الرأس الضخم - في صراع مع بعض المناوئين حيث نجح في شج بعض الرؤوس ، ومات

الشيخ فؤاد عبد الناصر متأثرا بلدغة عقرب هاجمته في مخزن التبن ، وانهار بيت حسان درويش فوق رأس ابنته العارية البيضاء ـ والتي كانت تستحم ـ ولم تصب بخدش واحد ، وتحول أحمد عبد العزيز الى فارس يقتني فرساً بيضاء شهباء يدك بها الأرض وتثير بحوافرها الغبار في وجوه القوم[1] ، ورفضت المدارس قبول رمزي نجيب فقضى وقتاً يسرق البلح وثمار الخيار غير أن ذا حيثية نجح في إلحاقه بمدرسة لاهوتية ليتخرج قسيساً ، وماتت الحاجة فاطيما الموتة الأولى[2] ، وصدر أول دستور مؤقت في عهد الجمهورية ، وظهر عفريت في قبر الأنبا سرابامون ، وعفريت آخر في منطقة البغيل ، واكتشف ذوو العيون الواسعة فضيحة في الوحدة المجمعة ، وأحيط مقتل واحد في درب الهجالة بالكتمان ، وتلاه ابراهيم غلة ذو الدماغ المنبعجة النحاسية .

البلد تمور وتتغير وتغلي وتتشكل ويتساقط في ساحتها الضحايا والجرحى والجهال ، ونعمان عبد الحافظ متورم ما بين الفخذين ، يزوره عيد المزين ويحاول أن يجد بين أكداس الصديد أملاً في وقف المأساة ، ويتوقف عيد المزين فتلجأ أم نعمان الى خبراء مداواة الجراح وكوائي العمود الفقري[3] وكل جمعة تمر تزداد الجراح التهاباً ويزداد ضمير الأم تقرحاً وإحساساً بالذنب لتركها نذر الشيخ الفرغل تائهاً على عتبة مقام الشيخ أبو هارون .

ذوو الدراية وضعوا خلاصة خبراتهم بين يدي أم نعمان ، هواء البحر اليوسفي مسمم فلا بد من نقل نعمان الى البيت القديم في

القرية ، الشيخ الفرغل غاضب فأقامت خمسة أذكار ـ استرضاء ومثوبة ـ أداها خيرة فرق الذكارة في المنطقة ، ثلاث زيارات متتالية لمقبرة المرأة الممسوسة التي اكتشفت عدم ختان نعمان في الفصل السادس حيث رشت أمه الماء المملح المذابة فيه حبيبات الراسخت[٤] ، نقل نعمان على ظهر حمارة بيضاء وأتيحت له فرصة المبيت أسفل ذكر نخل عقيم يعتقد أن واحداً من الجان يتمركز في قلبه ، قام أولاد علام ـ ثلاث مرات ـ بدق الزار ونصب الطاس لنعمان طرداً للأرواح الشريرة ، أحرقت أصواف نعاج ووبر جمال وشعر ذيل خيل وغمس رمادها في مياه بئر ارتوازي وعولج الجرح ، غير أن الجرح ظل ينز بالصديد والألم والبؤس والمهانة .

ولقد اختلف الرواة حول الذي أبلغ السيدة الجليلة ـ والجميلة أيضاً ـ بمأساة نعمان ، قيل أن حاسدة لأم نعمان كانت تجد السلوى فيما حدث لنعمان عن طريق التعزي بمسك سيرته ، وقيل أن مبلغها كان واحداً من أتباع أولاد علام ، وقيل أن السيدة الجليلة سمعت بالخبر عند اجتماعها بعلية القوم أثناء التمهيد لعقد أول مؤتمر لهيئة التحرير في ساحة القرية .

غير أن المؤكد أن الأمر صدر من السيدة الجليلة بأن يحمل اليها نعمان ، حمله أحد الخفراء الذي مات بعد ذلك مسمماً بدقانق الزجاج المخلوط بأرز السمك ، وعندما نزلت السيدة الجليلة الى الباحة وألقت نظرة على نعمان بكت أم نعمان عذراً وحزناً وألماً ومغفرة وقبلت يدها ، وعندما رفع الخفير جلباب نعمان كاشفاً عما

بين فخذيه صرخت السيدة الجليلة صرخة لم يسبق لها أن صرختها منذ مصرع الزوج الثالث أو الأول ، وسبت أم نعمان ونعمان والخفير والجهل والشيخ الفرغل وتراب المقابر وأولاد علام ، بعدها أمرت السيدة الجليلة الخفير أن يسرع بنعمان على ظهر أسرع جحش ليعرضه على طبيب البندر .

كان الجو حاراً ، مارس ـ ربما ـ أو بشنس ـ أو كيهك ، وللمرة الألف يلتف نعمان عبد الحافظ بملاءة زردخان[٥] أمام الخفير على ظهر حمارة جلجلة زوجة تادرس وخلفهما تهرع أم نعمان ، ويخترق الجمع الكباري والطريق والترع حتى يستوي على مدخل البندر ، والنار تأكل ما بين فخذي نعمان فلا يستطيع ـ حتى ـ أن يتأوه . . .

غير أن الأمر سار فيما لم نحسب له حساباً ، فقد أوقف شرطي الحمارة ومنعها من اختراق شوارع البندر ، وبعد الحاح ودموع تمكن الركب من اختراق قصبة واحدة ، حيث أوقف شرطي الحمارة ـ من جديد ـ كان الناس يزمرون وينشدون ويصرخون ويهتفون ، وعاشت مصر حرة مستقلة ويحيا الأحرار ولتسقط الحزبية ، وأي مكان لم يعد لائقاً كي يستتر الركب فيه ، ثم لم تلبث الجموع الزاحفة أن احتوت الركب بحمارته وبدأت تتحرك به ومعه ، وقام وطني همام بتوبيخ الخفير ، واستطاع أفراد ذوو دربة أن ينزلوا الخفير ونعمان ، وأن يأمروهما بالهتاف والتصفيق ، وأن يقف أحد الهاتفين على ظهر الحمارة معلناً سعادته الصارخة بزيارة الضيف الكبير ، وكان نعمان قد فقد القدرة على الحركة ، فحملته أمه منتحبة على كتفها ، حيث

ظهرت صورتها في صحيفة اليوم التالي تقف وسط الجموع الهادرة أسفل لافتة من القماش تعلن أن ديروط ترحب بالسيد وزير الصحة .

---

(١) لا بد هنا من التنبيه الى ما حدث للفارس أحمد عبد العزيز صاحب الفرس الشهباء : فقد وقع خلاف بينه وبين أحد حقراء التجار الذي لم يؤد التحية الواجبة للفارس ! فقام أحمد عبد العزيز بقلع عين التاجر بحد السكين ، ثم دفع تعويضاً وقضى ثلاث سنوات في السجن ، حيث توقف بعدها عن الفروسية حتى اليوم .

(٢) الحاجة فاطيما : كانت تقرض الناس بالربا ، وترفض أن تمد يد المساعدة الى أي من أبنائها ! ثم مرضت وتشهدوا عليها بعد أن سلمت أبناءها ثروتها ، غير أنها لم تمت ، وعاشت في ذل حيث منع عنها أبناؤها أية معونة حتى ماتت الميتة الأخيرة ؟ والتعبير الصحيح : ماتت الحاجة فاطيما الميتة الأولى لا الموتة الأولى .

(٣) كواءو العمود الفقري : خبراء في كي عصعص العمود الفقري بالاسياخ المحماة لطرد الشياطين والشفاء من الناسور أو الروماتيزم .

(٤) الراسخت: عند حك حجري بازلت لفترة طويلة مع رش الهندبة أو بودرة الزنك تعطي مسحوقاً أحمر يستخدمه العامة مذاباً في الماء لعلاج الرمد والجروح والدمامل .

(٥) الملاءة الزردخان : نوع من التيل ـ أو الكتان ينسج على أنوال .

فصل في التمهيد لعقد القران

أزعم أني فوجئت حينما بان لي أن فكرة زواج نعمان لم تكن بنت أيام التهاب ما بين وركيه ، بل هي ـ فكرة زواجه ـ قديمة قدم الندوب التي تغطي ركبتيه والشقوق التي تنمق بطن قدميه ، إذ (يسهل على من يؤرخ حادثة بعد وقوعها بعشرين عاماً أن يلم برعونة كل من كان طرفاً فيها[1]) ، والصدق يدفعني الى إقرار ظاهر المسألة ، تاركاً باطنها للمتعمقين الرائين للأمور بعيون البحاثة والمثابرين الذين يسترخون مستندين على الحيطان بظهورهم استمتاعاً بدفء شمس شتاء أو بظلال آخر نهار صيف ، قادرين على الفهم والتعليق والنقد والتشكيك والدعاية والتشكي والمرح ، وباستثناء بعض الأمور الأخرى ذات الأهمية البالغة فإن فكرة زواج نعمان أثناء علاج ما بين وركيه بالسلفا والبنسلين[2] وأكاسيد الزنك تعد واحدة من أخطرها وأكثرها أهمية .

ومبلغ تلك الأهمية ـ والخطر ـ يرجع في رأينا الى أن أحد مشاهير الجن أشار أثناء امتطائه امرأة في حفل زار دوري أن علاج ما بين وركي نعمان لن يتم إلا بامتزاج حلال بين دم نعمان ودم أنثى لم يسبق لذكر أن قاربها ، وقد أهملت أم نعمان الأمر لضيق ذات اليد ، ثم لم يلبث الأمر أن عاد ملحاً خلال المشاوير التي قامت بها بين قريتها وبين البندر ابتغاء

الحصول على المراهم ، إذ حادثتها امرأة من بيت أبي العيون مشهود لها بحصافة الرأي ورزانة الفكر ، ثم حادثتها في نفس الأمر سيدة أتيح لها المتاجرة في الجبن الأصفر الأمريكي الموزع على الجماهير من المستشفيات في تلك الأيام ، ثم لم يلبث أن أكد لها رجل يتاجر أحياناً في الشيح واللبان الدكر سداد هذا الرأي ، فأعلنت السيدة أم نعمان ـ وهي جالسة حول راكية النار ـ أن ابنها ـ إذا ما كتبت له السلامة ـ سوف يقترن بأجمل جميلات البلد ، بعدها مدت كفها الى نعمان الملفوف في الأغطية ، وأراقت حنانها العظيم على رأسه ليستشري الدفء في الوجه المغمور داخل برد طوبة .

في أمور الزواج وبيع البهائم ونية الحج والرغبة في زيارة البندر والاكتساء والطلاق وفطام العجول يفكر الناس بصوت عال ، وبالتالي فقد اكتشف من يهمه الأمر أن نعمان قد دخله العيش رغم ختانه المتأخر ، وكل أنداده ـ من عاش منهم ـ أصبح رجلاً مسئولاً ، الذي يعمل في بيوت المعاوضة والذي يسرح في الحقول بالبهائم في مواسم تنقية دودة القطن والذي يتاجر في الردة والنخالة ، والذي يعمل في مواسم تنقية دودة القطن والذي يتاجر في الردة والنخالة ، والذي يعمل في مواسم تنقية دودة القطن والذي يقشر كيزان الذرة أو عيدان القصب أو الذي يرعى الغنم أو يجري وراء حمير نقل السباخ ، هؤلاء غير من أتاح له رغد العيش أن يملك قطعة أرض[٣] ، ومقابل كل أنداد نعمان ـ ووراء حوائط البيوت ـ تكمن الأناث ذات الآذان البالغة الانتباه لكل همسة تتولد من حفيف نضوج سنابل القمح أو تفتح لوز القطن أو ثغاء حملان

الضأن أو خوار عجول البقر ، والتي تترجم فوراً الى الرغبة العظيمة التي يقوم بعبئها أولاد الحلال تمهيداً لإضافة رواق جديد يكون مقراً لبيت العدل .

في البدء كانت بنت ابن أبي عبد المولى مرشحة للاقتران بنعمان ، واستبعدت لظهور خنة في أنفها ، ثم كانت بنت ابن بيومي البناء واستبعدت لورودها من أصلاب أناس تقل فيهم خلفة الصبيان ، ثم كانت بنت أخت أبي العيون ، لكن معلومات مؤكدة أفادت بأنها خائبة ترتعش أمام الفرن فلا تحقق إتساعاً في الخبز ، ثم كانت إحدى حفيدات كاملة بائعة الدواجن ، وكادت أن توافق أم نعمان على ترشيحها لولا إشاعة عن رائحة فمها ، وبأن من كشوف الترشيحات أن إحداهن لا تملك مواصفات الحظوة بنعمان ، فأحست أم نعمان بسعادة قصوى لصعوبة توفر من ترقى الى الحصول على موافقتها ، وبدأت تسامر نعمان في الأمر ، وكأنها تمزج مسحوق الزنك والسلفا بأدوية الأمنيات العظيمة ، حيث يرش المزيج بين وركي نعمان ليطارد الألم والصديد .

مع إنفلاق كيزان النخيل وانتشار رائحة الطلع بدأت بنت أخت أبي العيون تعود الى رأس قائمة الترشيحات ، في نفس الوقت الذي بدأت بواكير الجلد الجديد تظهر فيما بين وركي نعمان ، أولاً لأن بنت أخت أبي العيون تقتني نعجة خالصة لنفسها وتشارك إحدى عوانس غرب البلد في نعجة أخرى ، كما أن ذوي الدراية أشادوا مراراً بإتساع خبزها ، إضافة الى أن للبنت أخوة ذكوراً وأعماماً ـ ذكوراً ، مما يتيح للقوم إطمئناناً الى نوعية الإنجاب ، ولا يمكن لنا التغاضي عما قيل عن حكمتها وأدبها

ورزانتها وحسن انصاتها ، وتجنبها مشاركة لداتها في العبث السري الذي دأبن على ممارسته على شواطىء أبي نوى بعد الغروب أو أثناء تعاملهن مع عامل الصنبور العمومي ، وثانياً لأن جدها ـ أبو العيون ـ واحد من كبار المختصرين الذين في حالهم ، حيث لم يسمع عنه ما قد يخدش الأذن أو نرى منه ما قد يجرح العيون ، وهي كلها أمور لها وزنها يمكن أن تطغى على ما وصلت به تلك المرشحة زوجاً لنعمان من إصابة صوتها بالخنة المكروهة والتي ـ فيها يقال ـ حالت دونها ونطق حرف (الراء) نهائياً .

وبدأت الرسل تفاوض في الموضوع ، حاملة وجهات نظر تكاد ألا تتقارب ، وعلى رأس الآراء المضادة للمشروع وجهة نظر أبي العيون نفسه ، والتي أسرها لرفيق ثرثار متضمنة إحساسه بالحرج من تزويج حفيدته الى سليل مختطف الدواجن الذي بدد جملاً ـ جملاً وليس معزة ـ وراء غازية غريبة ـ فاضطرت أم نعمان أن تكشف الغطاء عن مهزلة أبي العيون نفسه ذلك الذي ضبط مرتين متسلقاً حائط معمل كتاكيت في موسم ترقيد البيض ، كما أن أبا العيون ـ نفسه أيضاً ـ قام بأعمال مشينة حينما اختلس بعض رغفان فرح ابن عبد العال ، هذا دون الإفصاح عما قيل من اشتراك أبي العيون في التستر على خروف مفقود أو نقله الأخبار عن ممتلكات الآخرين للفلايت(٤) .

لكن الحكماء والمتعاطفين مع آل عبد الحافظ خميس وأبي العيون رفضوا توسيع دائرة الخلاف ، وضربوا على أيدي مدمني التسلي بالمهاترات ، حيث قام الشيخ حسني عبد النظير ـ الذي أكرمه الله فور ذلك فأصبح واحداً من خيرة المؤذنين ومقرئي القرآن الكريم ـ بمقابلة أبي العيون على

رأس الدرب ، حيث حذره ـ جاداً ـ من استمرائه للقيل والقال ، وأوضح له موقف نعمان من جميع أبعاده : طبياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً ، فاضطر أبو العيون أن يعتب على أم نعمان لإصدارها مقولات ضده تعد في حكم النسيان إن لم تكن افتئاتاً عليه ، وكان ذلك يعني أن الرجل يود المحاورة الجدية في الأمر ، وكان ذلك يعني ـ أيضاً ـ أن الرجل قد وافق من الناحية المبدئية على الإصهار الى آل عبد الحافظ خميس لما يعرفه عنهم من قيم وفضل ورجولة ، وأن أي مباحث ستنصب على التفاصيل والتوقيت ، لتنطلق الزغرودة الأولى في الآفاق .

عندما فج[٥] نعمان متحركاً خارج الدار في رحلته الأولى لزيارة ابي العيون كان قد نضج واكتسب خبرة وصلابة ومراساً ، حمل منديلاً يحوي أرزاً وصابونتين ونصف أقة فول سوداني وحفنة كراميلة ، وقيل أنه ابتاع لعروسه لحوماً أيضاً ، غير أن المؤكد أن صهره استقبله بترحاب في أمسية يوم سوق ، وأنه تعشى ـ دون أن يرى عروسه ـ قلقاساً ولحم ضأن وخبزاً شمسياً ، ثم احتسى شاي المساء في ردهة البيت حيث لحقه من قومه أمه وأحد أقارب أمه واثنان من آل أبيه ؛ وقد فتح الموضوع للمناقشة لتحديد المطالب ، فترك أمر « النيشان »[٦] لتقدير آل نعمان ، على أن يكون المهر كالآتي :

١ ـ أربعون جنيهاً تدفع كلها فور انتهاء السدة الشتوية والتي تعني الانتهاء من كمر سمك الملوحة .

٢ ـ ٦ كيلات قمح بويه أو ٨ قمح استرالي .

٣ ـ ٥ أرطال من سمن الجاموس أو ٧ من سمن البقر .

٤ ـ ذبيحة ماعز أو ضأن .

وقد قرأ القوم الفاتحة ، مرة من أجل أن يهيء لهم الله سبل السداد ، ومرة لإستعداء الله ضد من يخل بالالتزام ومرة ـ ثالثة ـ من أجل حماية المناط بشأنها الأمر من الأمراض والأعداء والنيران والسم والحسد والجشع . بعدها تضاحك القوم وتساروا وتوسلوا لله أن يطرح في الدنيا البركة .

وخلال الشهور التالية نجحت أم نعمان في تدبير أمر النيشان ، ذلك لأن ما يحويه النيشان يعد علامة على ما يكنه الفتى من إعزاز لعروسه ، إن أمر المهر يخص العائلتين بقدر ما يخص العروسين ، أما النيشان فهو السلوك الشخصي الرسمي المباح .

وفي ليلة نصف شعبان اصطحَبت ـ وسط الزغاريد ـ أم نعمان صبيتين تحملان نيشان عروس نعمان المكون من :

١ ـ شال أحمر بورقته تم الحصول عليه من ملوى .
٢ ـ جورب لحمي وجورب أسود لزوم العزاء .
٣ ـ أربع قطع صابون نابلسي .
٤ ـ أربع حردات [٧] على أربعة ألوان اثنتان منها بالقصب والترتر .
٥ ـ شبشب بوردة عمولة الداخل .
٦ ـ قطعتان من القماش الستان فرح قلبه من أغلى نوع .
٧ ـ نصف طل حنة سويسي .
٨ ـ ثلاثة أقماع سكر .

٩ ـ ثلاثة مناديل أصباغ اشتهرت بتوريد الخدود عند حكها بالبشرة .

١٠ ـ زجاجتا شربات العنتبلي .

---

(١) لعبة الأمم : تأليف مايلز كوبلاند (ص ٣٦) .

(٢) يرتاح المواطنون الى رش مسحوق حقن البنسلين على الجراح هروباً من وخز الابر .

(٣) هذا قول فيه مغالطة ! إذ أن بعض أنداد نعمان دخلوا مدرسة المعلمين الريفية فور افتتاحها بالبندر ونتيجة لقيام أحد ذوي المناصب بحمل عدد من تلاميذ المدرسة الأولية اليها ، وقد تخرج هؤلاء الأنداد معلمين يشار اليهم بالبنان .

(٤) الفلايت : شريحة من اللصوص يقيمون في الخلاء والحقول ، وقد أطلق عليهم هذا الاسم نتيجة للاعتقاد بأنهم لا بد قد افلتوا من السلطات أو هربوا من السجون .

(٥) فج : يفج ـ أي باعد ما بين ساقيه . (وقد درجت العامة على تحوير هذا العمل الى فجح : يفجح) المعجم الوسيط ـ ج ٢ ـ ص ٦٨٠ ـ مادة ف ج ح .

(٦) النيشان : مقدمة الاقتران بالعروس ! وهذا التعبير مشهور في الصعيد الأوسط ومناطق بحر يوسف ، لكني لم أعثر عليه سواء في ما ترجمه الزميل زهير الشايب من فصول كتاب (وصف مصر) أو ما ورد في كتاب (المصريون المحدثون) لإدوارد وليم لين .

(٧) الحردة واحدة الحرد أو الحردات : منديل للرأس .

فصل في العرس . . . . !

بمجرد الإطمئنان الى خمول بنات الحور وعدم مهاجمتهن للقمر ، وسداد آخر بند من بنود المهر ، وانتهاء فرج الله الخياط من تركيب قطان الجلباب الفريسكا ، ورحيل شهر طوبة ، ومضيّ أربعين يوماً على وفاة أحد أقارب العروسة[1] ، والتيقن من عدم تعارض مواعيد الموانع الأنثوية مع أيام التزاوج ، بدا واحد من ذوي الحكمة في إرشاد نعمان الى أحد طرق اثبات الرجولة ليلة الزفاف ، بعدها بساعات تمخضت أطراف العريس بالحناء ، وشذب عيد المزين شعر نعمان وأظافره ، وصحبه الى ابن عبد الجيد[2] للحصول على حجاب تأمين سلامة أداته واجباته في تلك الليلة العامة ، ثم عرجا الى مقامات الأمير سنان والخضر والصباغ وعبد اللطيف وزاوية الشيخ علي التي في طريق الطاحون ، حيث تليت الفاتحة وتم التوسل بهم الى الله والرسول وأهل بيته كي يطرحوا في نعمان البركة والرجولة وفي بنت أخت أبي العيون الإنجاب والصلاح والتقوى وعدم الغواية والرشاد ، حينئذٍ ، أصبح مناسباً ان تتجه سالمة ـ أشهر مغنيات القرية في ذلك العقد ـ الى بيت العروسة لتشدو :

على جبين المجلع شفت هلالية
تنور الزرع والخيرات والمية

علــى جـــبــين المــجــلع شــفــت طــاقــيــة
فــيــهــا جمــيــع الــبــنـــات مــن كــل حــبــشــيــة

ومارت الطبول متسلقة جو القرية ، لتهتز الأبدان أمام الكوانين والأفران ومرابط البهائم ، جاذبة الصبيان والبنات الى بيت العروسة ، ليتوازى معها طبل آخر كبير قادم الى بيت أم نعمان ، وفي أقل من الوقت الذي تستغرقه ركعة صلاة : تحلق الرجال في شارع الحدايدة ، وانداحت الزغاريد من بقعتين : بيت أم نعمان حيث ازدادت دائرة الرجال في باحته اتساعاً ، وبيت أبي العيون حيث انهمرت النسوة ذات العيون المطمورة أسفل ركام جميل من الكحل والخدود المحكوكة بمناديل الشبت الحمراء والكعوب المحكحكة بخرفشة الطوب الأحمر الدامي ، يشاركن في غناء سالمة ذات الحنجرة العظيمة التي انتفخت متدلية حول رقبتها مشيرة الى آلاف أفراح الدخلة والطهور وأحكام البراءة والخروج من السجن وإنجاب الصبيان وكسب قضايا الأرض وبقر بطون الاعداء والتعديد والتجنيز وعودة الغائبين .

قبل تحرك آل عبد الحافظ خميس من أمام بيوتهم للذهاب الى بيت أبي العيون مصطحبين الطبل الكبير : قاموا بخمس جولات من التحطيب شارك فيها من الفوارس المبدعين : جاد جيد عبد النور ومحمود أبو دقن وعبد النظير ابراهيم ، ومن ذوي أنصاف الدراية بالتحطيب : عبد الحميد عبد العزيز ـ أو أخوه أحمد ـ وواحد من بحرى البلد لا أذكر اسمه واثنان من قرى الغرب جاءا مصادفة للمطالبة على نقود فشاركا في الاحتفال .

ثم لم تلبث الجموع أن تداخلت مفسحة الطريق لطابور مزغرد من نساء آل أبي العيون حاملات حاجة العروسة فوق رؤوسهن والمكونة من مرتبة ومخدتين رأس ومخدة وصينية قلل ونصف قنطار من أواني النحاس ودولاب بضلفتين ولحاف أخضر وسبت به ملابس العروسة مغطى بشالها وصندوق من الخشب المصنوع من صنبور مزخرف برسومات لطيور جميلة ذات لونين أحمر وأصفر يحيطهما ـ على جميع الجوانب برواز أخضر[٣] .

وبمجرد إدخال حاجات العروسة بيت نعمان بدأت مسنات العائلة في إبراز مهاراتهن في تنظيم فرش العرسان[٤] بحيث يصعب على الأصوات الخصوصية أن تنسل خارجاً ، في الوقت الذي يبدأ ركب الرجال في الصخب من جديد كي يتحرك بطبله وزمره لينتقلوا ـ وآخر النهار قد حل ـ الى منزل آل العروسة كي يستأذنوا في إصطحابها الى عريسها .

أين نعمان ؟؟ اغتسل نعمان مبكراً ـ أي في الظهيرة ـ حيث قام عيد المزين بتشذيب آخر ودقيق لأجهزة نعمان ، ثم مر نعمان ـ يصحبه أحد كبار العائلة على بيوت القوم ليدعوهم الى حفل زفافه الليلة والعشاء في اليوم الثالث ، ولا بد لنعمان أن يمر على الناس كي لا يعتب أحد عليه ، بعدها يجب على نعمان أن يحضر ملابسه الجديدة من الخياط ، لينجلي آخر النهار مهذباً مشذباً نظيفاً .

لا أعرف إن كان من الصواب أن نتابع العروسة أم نلاحق العريس ، وخير لنا أن نتجمع مع قوم عبد الحافظ خميس في حركتهم البطيئة من أمام بيوتهم حتى بيت أبي العيون مطبلين مزغردين ، حيث قطعوا المسافة التي

يقطعها الحاج زكي ابراهيم - الأعرج - في نصف وقت حتساء كوب شاي - قطعوها في وقت تروي فيه مساحة نصف فدان من ساقية محدودة القدرة ، إذ كان القوم يتوقفون بين كل قصبة وأخرى ليعودوا للتحطيب والرقص والتغني بفضائل العريس والتي تستبين منها أن نعمان قد سبب للأعداء الحسرة وللحساد الكمد لأعماله الخارقة في القنص والصيد والطعان والمنازلة والحفاظ على الشرف والحنو على اليتامى وإعلاء كلمة الحق وعدم الرضوخ للظلم اقتداء بآل خميس جميعاً ، بعدها بات على القوم أن أن يتغنوا بمحاسن العروس ، ودون إفراط فقد بدا أن العروسة تباري القمر في جمالها والشمس في حرارتها والزبدة في ريقها والعجين في ليونة سرتها والغزال في مشيتها والبقرة في عيونها واليمامة في خفتها وليلة القدر في أرزاقها والناقة في صبرها والقطيفة في سحرها والنبقة في رفعة أنفها والخوخة في احمرار خدودها والبلطية في مرونة حركتها والقطة في أمومتها اقتداء بنساء أبي العيون جميعاً .

قليل من عروسات قريتنا من امتطين الجمل - بهودجه الشهير - في الانتقال الى بيت العدل ، ونادرات من أتيحت لهن فرصة استخدام سيارات في هذه المناسبة ، ومعظمهن انتقلن من بيوت آبائهن الى بيوتهن سائرات على الأقدام ، حيث بدأت بنت أبي العيون رحلتها الأبدية وسط حشد من النساء ، مرتدية فستاناً من الساتان الأبيض المشغول بالترتر والمقصب ، وعلى رأسها الشال الأحمر الممنوح لها في نيشان العريس ، وفي قدميها الشبشب أبو وردة ، وأمام الجميع جمع آخر من الرجال يحمل أحدهم كلوباً اقترضوه من بيت محمد عثمان أو محمود علي شناوي ، هذا

الكلوب الذي أضاء الزقاق والشارع والزقاق والشارع ثم زقاق آل نعمان ، حينذاك ، ووسط انهمار الزغاريد ، أدخلت العروسة بيتها الجديد ، وتقدمت من العتبة بقدمها اليمنى ، فقامت أم نعمان بغسلها بماء الورد المستجلب من عبد المنعم الحباك ، ثم حملت الى حجرة نعمان ، وأغلق الباب عليها ومعها الداية وإحدى عجائز آل أبي العيون وأم نعمان ، ووقف عبد النظير بخشونته وجسده الفارع على الباب ليحول بين الناس وبين محاولة الدخول ، حينئذٍ بدأت الداية عملها ، خلعت العروسة عن شالها وبعض أرديتها التي تعوق الحركة ، وأمرت المرأة المسنة أن تجلسها على حجرها وأن تلف ذراعيها حول إبطي العروسة وحول فخذيها لتعجزها عن المقاومة ، وفرشت أسفل وركي العروسة العاريتين شوالاً ، وأمرت من يقف بالباب بالإذن للعريس بالدخول .

وظهر نعمان في الوقت المناسب تماماً ، شرخ جموع الأطفال والنساء وبيده المصبوغة بالحناء خيزرانة ، وانفتح الباب ، ثم انغلق ، وبدأ الرجال يحدثون ضجة صارخة بالخبط على الباب ، وامتدت ذراع نعمان ذات الأصبع المهيأة ، واخترقت الأصبع موضع العفة في بنت أخت أبي العيون ، اقتحمت الأصبع المشرعة طبقة الألم الدموي الشريف ، لتصرخ العروسة ، لكن الداية تنتبه الى وجل العريس ، فتسبه وتمسك بأصبعه وتعيد من جديد الاختراق ، فينبثق الدم العظيم معلناً انتهاء الجزء الأول من حياة نعمان ، ومؤذناً للقوم المنتظرين بإطلاق عياراتهم النارية ، والمنديل الدموي يلقى فوق رؤوس الحشد حاملاً في ثناياه

حسن الاختيار ، ليتحرك القوم بعدها بنعمان الى تـرعة بحـر يوسف ليتسنى للعريس أن يلقي بالطوبات السبع الى النهر ، والسعـادة تغمر شاطىء بحر يوسف ، وأحد السفراء يتحرك في نفس الوقت مقترباً من مجلس قيادة الثورة ، ليسلم انذاراً شديد اللهجة طالباً من جمـال عبد الناصر أن يسحب جيشه من حول القناة أو يسمح لبريـطانيا وفـرنسا بضرب المطارات والمنازل بالقنابل .

---

(١) (أ) تشتهر صنبو ـ من أعمال مركز ديروط ـ بالتخشيب وتجارة الردة وصنع المراكيب .
(ب) لم يرد في حاجيات العروسة أي ذكر لسرير أو كراسي خيزران .

(٣) لا بد من التنويه بالمهارات الفذة للمسنات في تنظيم فرش الزفاف وتوليد النساء وقطع خلاص الولائد وتغسيل وتكفين الموتى . كما أن نظائرهن من الرجال يبرعون في عمس وتوليد البهائم والكي بالنار وذبح الحيوانات المتردية ووصف طرائق تقوية الباه ومراقبة النجوم .

الفهرست

ديروط الشريف

من التاريخ السري لـ: نعمان عبد الحافظ

36
d